الملحق الثقافي

ملحق أسبوعي
يصدر كل ثلاثاء
عن جريدة الثورة
العدد 1149
2023/6/27

ملف العدد

هل فقد الغرب هيمنته الثقافية والفكرية ..؟

أول الكلام

عربي سوري ..

▪ ديب علي حسن

ليس هضبة ولا جبلاً لاعباً بالتاريخ والحقب كما قال سعيد عقل في الجولان، هو ذلك صحيح صانع للمجد والتاريخ شاهد على كل شيء..

ولكنه فوق هذا كله قلب سورية التي هي قلب العالم ..والقلب لا يغادر الجسد أبداً..

الجولان قمم الشموخ والإباء، أهلنا الذين يكتبون كل ساعة تاريخاً مجيداً بصوت واحد يرددون: الجولان عربي سوري ...ألاحظتم أن كلمة عربي قبل سوري ..نعم نحن عرب نعتز بعروبتنا وننتمي لسوريتنا التي تعطي العروبة معناها..

اليوم وكل يوم أهلنا في الجولان وفلسطين شاهد على أن سورية قلب العالم ونبض العروبة ودمها وشعبها يعرف كيف يصون ويحمي الأرض والديار ويرفع رايات العروبة..

نعم جولان بنت عم الشمس والتاريخ أيضاً شاهد على ذلك.

أهلنا الصامدون هناك: أنتم الجذر و الشريان ولكم في كل بيت وكل قلب عربي وسوري ألق الوفاء والنصر والحب وموعدنا قريب قريب، فمن كان بمثل إرادتكم لهو صانع الانتصارات.

عائدٌ أنت يا جولان

صدام الحضارات

نيويورك ورم زائد

العالم ليس حقلاً غربياً

رئيس التحرير
أحمد حمادة
مدير التحرير
معد عيسى
إشراف
ديب علي حسن
الإخـــراج
هدى نصر شمالي

معرض

تشكيلو حماة وتجارب فنية متنوعة

خمسة وعشرون عملاً فنياً بأساليب وتقنيات فنية مختلفة ضمها المعرض السنوي لفرع اتحاد الفنانين التشكيليين بحماة بعنوان «ربيع حماة» الذي أقيم في صالة الاتحاد بالمحافظة.

المعرض الذي يقام كل عام تزامناً مع مهرجان ربيع حماة جمع أعمالاً لـ ٢٥ فناناً تشكيلياً من فناني حماة، بمواضيع تنوعت حول المعالم الأثرية والمناظر الطبيعية التي تمتاز بها المحافظة، ومواضيع عن المرأة والبورتريه والتي عكست أحاسيسهم وهواجسهم، وعبروا عنها بأساليب متنوعة.

وبين رئيس فرع اتحاد الفنانين بحماة فواز كرديش في تصريح له أن المعرض يعكس تطلعات وتجارب عدد كبير من الفنانين، وهو ما يصب في إغناء الحركة التشكيلية، لافتاً إلى أهمية المعارض التي تبرز نتاجات الفنانين التشكيليين الجديدة.

الفنانة بسمة نجار المشاركة بلوحة تعبر عن المرأة جسدتها بشكل شجرة مورقة دائمة الخضرة ولها جذور أصيلة، رأت أن المعارض الجماعية تتيح التعرف إلى أعمال وتجارب فنانين آخرين، حيث تنوعت لوحات المشاركين بأساليبها ومواضيعها ومدارسها وعبر كل فنان بطريقته الخاصة.

وأشار الفنان عبد الستار عمرين إلى أن المعرض حالة فنية رائدة تجسد الحراك الثقافي في حماة، لافتاً إلى تميز لوحات المعرض وموضوعاته التي تحاكي قضايا الإنسان ورؤيته لطبيعة الواقع بعد صياغتها وفق تشكيل جديد.

التاريخ في كنوز إبداعية

عادت اللوحة الفسيفسائية الأثرية المكتشفة مؤخراً في مدينة الرستن بريف حمص إلى الأضواء، مع اكتشاف مشهد ثالث جديد فيها يجسد «حرب القناطير» التي ذكرت في الأسطورة اليونانية القديمة في النصف الثاني من القرن الرابع للميلاد.

وأعلنت المديرية العامة للآثار والمتاحف بوزارة الثقافة خلال مؤتمر صحفي في موقع اللوحة بمدينة الرستن أن المشهد الجديد للوحة نادر التمثيل ويعرف في الميثولوجيا اليونانية باسم «حرب القناطير» ما يعطي اللوحة أهمية استثنائية على مستوى العالم، بما احتوته من مشاهد مهمة، بينها المشهد المركزي الذي يمثل «إله البحر بوسيدون»، والمشهد الثاني الذي يمثل «حرب الأمازونات».

وأوضح مدير الآثار والمتاحف محمد نظير عوض خلال المؤتمر الصحفي أن اكتشاف المشهد الجديد يعطي اللوحة أهمية استثنائية على مستوى العالم من حيث الموضوع والمساحات المملوءة بها، لافتاً إلى أن مشهد حرب القناطير وبتقييم خبراء ومختصين في الآثار يؤكد الأهمية التاريخية والآثارية والفنية لها في منطقة الرستن التي تحتضن بين ربوعها بقايا من مملكة آريتوزا بدءاً من الفترة الإغريقية واستمراراً بالمرحلتين الرومانية والبيزنطية، كما أنها غنية باللقى والمكونات الأثرية، إضافة إلى مجاورتها مملكة حمص.

وأكد عوض أهمية اللوحة التي تلقت الدعم اللوجستي من وزارة الثقافة ومحافظة حمص، بالتعاون مع متحف نابو اللبناني الذي مكنهم من شراء وتأمين المساحات، إضافة إلى دعم المجتمع المحلي ومتابعته وتسهيله عمل البعثة الأثرية، لافتاً إلى أنه واستناداً لأعمال التنقيب المستمرة في المكان واللوحة التي وجدت فيه يرجح أن يكون قصراً أو مركزاً حكومياً ضمن المملكة.

وبين مدير التنقيب والدراسات الأثرية في مديرية الآثار والمتاحف الدكتور همام سعد أن التقارير العلمية أظهرت أهمية اللوحة الفسيفسائية المكتشفة في الرستن، واستثنائيتها على مستوى العالم من حيث المشاهد الثلاثة التي جسدتها، إضافة إلى اكتشاف بوابة صرحية بجانبها، والعثور على بقايا لرسوم جدارية ضمن إحدى النوافذ.

وأضاف سعد: مع استمرار أعمال التنقيب والبحث في المكان لمعرفة حدود اللوحة التي تقدر بثلاثمئة متر كان الطريق عائقاً ما اضطر البعثة إلى إجراء سبر ضمن مقطع الطريق ليظهر المشهد الثالث وهو حرب القناطير، وهي حرب مذكورة في الإلياذة وذكرها أحد المؤرخين اليونانيين، حيث دارت رحاها بين ثلاثة وخمسين قنطورا وثلاثة وعشرين من شعب اللابيتس اليوناني، وكان لها رمزية مهمة جداً وتعني الوحشية، أما القنطور فهو نصف جسد حصان والجزع العلوي إنسان، وهي ترمز إلى الصراع بين النظام والفوضى والمشهد المكتشف في اللوحة يجسد تفاصيل تلك الحرب.

مدينة الرستن المشهورة بأوابدها التاريخية، ومنها تابوت الرستن المشهور والمحفوظ في المتحف الوطني بدمشق.

بدوره بين مدير الآثار والمتاحف في حمص حسام حاميش أن التنقيب في مكان اللوحة يحتاج إلى خبرات عالية، وخاصة في ظل الظروف الصعبة وبسبب توضعها على أكثر من عقار ما يتطلب التفاوض على استملاكها في منطقة غنية بالآثار، مشيراً إلى أن أعمال التنقيب في تل الرستن الأثري مستمرة منذ سبعة عشر عاماً، حيث تم اكتشاف أعمدة وتيجان تقارب في أهميتها الأعمدة التدميرية، كما يشير الحجم الكبير لشبكة المياه المكتشفة في المكان إلى وجود إمبراطورية آريتوزا.

وبين حاميش أن مديرية الآثار والمتاحف بحمص، بالتعاون مع المحافظة بصدد وضع دراسة لموقع اللوحة المكتشفة، وجعله متحفاً في الهواء الطلق عند الانتهاء من أعمال التنقيب واكتشاف المزيد من الآثار المطمورة.

واللوحة الفسيفسائية التي اكتشفت عام ٢٠١٨ تم الوصول إليها بعد الحفر والتنقيب في أحد المنازل بمنطقة الرستن، يبلغ طولها عشرين متراً وعرضها ستة أمتار، وتعد فريدة على مستوى العالم لأهميتها من الناحيتين الأثرية والفنية.

وتجسد اللوحة حرب طروادة حيث يظهر الإمبراطور هرقل وهو يحاول السيطرة على الحزام السحري من ملكة الأمازونيات بعد قتلها، إضافة إلى الإطار الذي يلف اللوحة وفيه مشاهد للمقاتلات الأمازونيات ولجنود يمتشقون الأسلحة والدروع في ميدان المعركة مع اليونانيين، حيث دونت أسماؤهم، كما تتضمن اللوحة صورة لآلهة الريح والفصول.

توجه جميع الرسائل
باسم هيئة التحرير
D.hasan09@gmail.com
هاتف ٢١٩٣٢٢٢

كتاب العدد
حسب الترتيب الهجائي

ايمن المراد
دلال ابراهيم
رفاه دروبي
عبد الحميد غانم
علي حبيب
فاتن دعبول
مها محمد
وفاء يونس

هل فقد الغرب هيمنته الثقافية والفكرية.؟

رفاه الدروبي

طرقنا باب المثقفين لنسألهم عن دور الغرب في الهيمنة الثقافية والفكرية فخطّت أقلامهم عصارة فكرهم حول القضية.

تغيير الأدوار ومنظومات القيم

الناقد أحمد علي هلال أفاد بأنّ السؤال مركّب يستبطن انزياح المركزية الثقافية الغربية، قياساً على ما يجري في المشهد العالمي، أي باتجاه تعدُّد الأقطاب وتفكُّك الهيمنة الثقافية الغربية، واقع الأمر أنّ الهيمنة ذاتها تتجدّد بشكل أو بآخر عبر استثمار الثورة التقنية في العالم وتغيّر الأدوار، وتعني تغيُّراً في منظومات القيم الجديدة، وإطلاق ظواهر تتزيّا بزي الثقافة ظاهرياً لكنّها تخفي في أقنعتها هيمنة أنساق جديدة في التفكير والسلوك، ربما لأداءات الأدوار عبر آليات استشراق جديدة حوّلت العالم كما يعرف إلى قرية صغيرة ومع نبوءات آرنولد شبلغنر في أطروحاته المعرفية والتاريخية وتهوّر الحضارة الغربية، ومع ما بشّر به الروائي كولن ولسن، أي سقوط الحضارة.. ويمكن الوقوف عند إرهاصات هيمنة مختلفة تتطيّر من أدوارها القديمة، اختراقاً وتفكيكاً للثقافات الأخرى.. وبطبيعة الحال نقف أمام مشهديات جديدة عالمية وسياقاتها، تعلو خطابات الهويات والخصوصيات، وتراجع المركز لمصلحة الهوامش، تتسع لتُشكّل في خضم الثقافة المعاصرة نزوعاً للانعتاق والتحرُّر.. فالغرب الاستعماري لن يمارس أدواره القديمة أمام صعود خطابات ثقافية جديدة، تبحث عن شرطها الإنساني والوجودي، أمام تغوّل الأنساق الثقافية الغربية، وعربياً على الأقل، ثمّة جدل لاستعادة أدوار الثقافة بعيداً عن أنماط الهيمنة الغربية واستعلاءاتها، وقسرها لماهيّة إنسان الثقافة بفعل الحاجة إلى التنوير ارتبطت الحاجة بسياقات تاريخية، بين خفوت وعلو، مع انكشاف أهداف الهيمنة ويقظة الوعي الجمعي لما يستهدف الشرق العربي، ربما تنجح مقاربة تغيُّر ذاته، وبطيء نوعاً ما، في قراءة موضوعية، لخطابات الانفكاك من داخل وخارج الثقافة الغربية، وستبدو غير متماسكة داخل نسيجها الفكري، ما خلا صلابتها الهشة، أمام من يستهلكون في بضاعتها وأنماط تفكيره، وستضمر الأسئلة في السياق ذاته جواباً ممكناً غير متعجل، يقول: إنّ الرهان على الثقافة بات فاشلاً ليس بفعل الرغبة وإسقاطها بل بفعل ممكنات موضوعية داخل نسيج الثقافة المهيمنة والاستعلائية وإنّ تغيّرت أقنعتها ورمزها، وبالعودة إلى ما كتبه المفكّر إدوار سعيد في كتابه «الثقافة والإمبريالية» سيتأتّى لنا أن ننظر داخل سياقات الثقافة الغربية بنماذجها الدالة لنستخلص متعاليات الاستشراق وأفوله، بفعل أشكال مقاومته، ورفضه لهما، لكن سؤالاً كبيراً يطرح نفسه حول دورنا الثقافي، وأيّة مقومات سنمتلكها لنستعيد شرطنا الحضاري، وخصوصيتنا الثقافية كي نعطي للثقافة العربية مدلولها بعيداً عن أنماط الاستهلاك، أي لننتج معرفياً دوره؟ الأسئلة الجديدة تعني الهوية والكينونة قبل أن تتجلى في إبداع الثقافة عبر أجناس الأدب والفنون، سؤال سيعبر إلى الوعي ومنه، حداثة التفكير والفعل والإنتاج واستكمال دورة حضارية غائبة أو مغيّبة، كي نستعيد أدوارنا بفعل عقل نقدي فاحص، ستشكّل إرهاصات التشظي للهيمنة الثقافية الغربية نوعاً من التحدي والاستجابة، نحتاج إلى انتظار النتائج وقتاً غير قليل وباستنفار عوامل الاستنهاض بفعل قراءات ومراجعات فكرية من أجل ألّا نقول إنّ ثقافتنا ليست بخير أو مازالت بخير ولكن هل تسطع شمسنا بجديد على الغرب ما رأت ذات يوم المستشرقة الألمانية زيغريد هونكة؟

للثقافة العربية حضورها

مُقرّر جمعية الشعر في اتحاد الكتّاب العرب جهاد الأحمدية رأى أنّ للثقافة العربية حضوراً ليس قليلاً ولاسيما في مجال الشعر لأنّه جنس أدبي يعتمد على الموهبة، ومقومات ثقافية متعددة لها ثوابت وأسس، ولايمكن الاستغناء عنها، فالشعر له دور كبير في الحفاظ على ثوابت المجتمع وقام بفعله في نقل كثير من الحضارات العربية حاول المروّجون للثقافة الغربية الوصول إلى حدّ ليس معقولاً أن يبدّلوا الحضور الشعري بأشكال أخرى تحمل الاسم ذاته وتخرب القيمة الحقيقية له، وأنّ الأمر كان خطيراً فلا يمكن أن يكون من هدفه نظراً لقوة الشعر وقدرته على الاستمرار والبقاء.

كما بيّنت الشاعرة والأديبة أسمهان الحلواني أنّه مادام يتداول مصطلح الهيمنة الغربية الفكرية والثقافية.. ولطالما كان المجتمع الشرقي لقمة شهية يتشهى الغرب ابتلاعها وملء بطونهم من مقدراتها و مذاقاتها المتنوعة منذ أن غزا بلادنا إبان الحرب العالمية الأولى وبعد فترة طويلة من الهيمنة العثمانية، شرع بالتقسيم تمهيداً لفرض هيمنته، وقام بالعديد من الممارسات كمحاربة اللغة وفرض مناهجه و لغته وتحية علمه، كما عمد إلى قتل المفكرين والتضييق على المثقفين والرموز الوطنية، وحاول استجرار الفئة الشبابية إلى الثقافة الغربية والإباحة في محاولة لطمس ما تغنى به أبناء حضارتنا الإنسانية من موروث غني عبر الأجيال استمرت محاولات التشويه كالنهب وسرقة الآثار والاتجار غير المشروع بها وتزييف بعضها في مخابرهم الخاصة لتغيير هوية المكان و تاريخه، كما عمدوا إلى تدمير المواقع المهمة أو إلحاق الضرر الكبير بها، متسائلة: هل حقاً نجحت الهيمنة الغربية الثقافية على فكرنا؟ رغم انبهار العديد من أفرادنا بالثقافة الغربية وترفع شعارات مناصرة حقوق الإنسان والحفاظ على الحريات الشخصية ومحاربة العنصرية و إبداء الرأي و و و ...و رغم غزوها لنا في عقر دارنا من خلال ثورة الرقمنة والشاشات الزرقاء والهواتف الذكيّة وامتداد شبكاتها لاقتناص فرائسها أفكار الشباب إلا أنّ الكثيرين وعوا فكرة قناع يرتديه الغرب وما يخفي خلفه من مقاصد حقيقية طامعة تستهدف فكرنا الثقافي وتسعى لجذبه وخداعه.

يدّعون الحرية والديمقراطية

الشاعرة الحلواني تابعت قائلةً: إنّ وراء ادعاءات الحرية والديمقراطية كلها يقبع غرب رأسمالي متوحش فأسلوبه في تعامله مع العديد من القضايا تجلّت بتزييف وسائله الإعلامية للحقائق وتضليلها، لافتة إلى ما يحدث من انتهاكات لحقوق الإنسان بالرغم من انجذاب الكثيرين للغرب وثقافته إلا أنّه سقط في وعي آخرين أيضاً حين رأوا ممارساته العنصرية بحق المظلومين اللاجئين، وحين فضحت مآربه من التدخُّل في سياسات الدول كالعراق وليبيا واستحالت كثير من مناطقها إلى مناطق نزاع مع مجموعات مسلحة فأين الديمقراطية؟.

كما أشارت بأنّ من يتّسم بالفكر النيّر يستطيع استلهام أنّ كلمة هيمنة تراجعت حين أدرك أنّ جهاز التحكم المستحوذ عليه الغرب بدأ يفقد فعاليته لأنّ هناك من امتلك دفة قراره، منوّهة بأنّ الهيمنة نوع غير مباشر من الحكومة ذات السيادة الإمبراطورية حيث تمارس الدولة المسيطرة القيادة الجيو-سياسية على الدول المسيطرة عليها باستخدام القوة العسكرية المباشرة عند الإغريق كان يعني النوع نفسه من الحكم سيطرة دولة أو مدينة على الأخرى.. وظهر مفهوم الهيمنة الفكرية الغربية خلال القرن التاسع عشر الميلادي وتمّ تداول المصطلح وكان المجتمع الشرقي لقمة شهية يتشهّى الغرب ابتلاعها وملء بطونهم من مقدراتها ومذاقاتها المتنوعة.

فيما أردفت بأنّه منذ غزو الغرب لبلادنا إبان الحرب العالمية الأولى وبعد فترة طويلة من الهيمنة العثمانية، شرع بالتقسيم تمهيداً لفرض هيمنته وقام بالعديد من الممارسات كمحاربة اللغة وفرض مناهجه ولغته وتحية علمه، كما قتل المفكرين وضيّق على المثقفين والرموز الوطنية وحاول استجرار الفئة الشبابية إلى الثقافة الغربية والإباحة والمثلية لمانعة التمدد البيولوجي على حساب التمدد البيولوجي الغربي، وفي محاولة لطمس ما تغنّى به أبناء حضارتنا الإنسانية من موروث غني عبر الأجيال.. مؤكّدة على استمراره في محاولات التشويه كالنهب وسرقة الآثار والاتجار غير المشروع بها وتزييف بعضها في مخابرهم الخاصة لتغيير هوية المكان و تاريخه، كما عمدوا إلى تدمير المواقع المهمة أو إلحاق الضرر الكبير بها وتطلبت الهيمنة الغربية استخدام أدواتها للتدخل في المجتمع السوري وتفتيته بكل وسيلة ممكنة، بحيث لا يعود قادراً على مقاومة عملية نهبه.. وعملية التزوير تبدأ من تحويل التمايزات الطبيعية ضمن أي مجتمع إلى صراعات غير قابلة للحل؛ كصراع بين الرجال والنساء، والقوميات، والأديان، والطوائف، والعشائر، وصولاً إلى «حرب الجميع ضد الجميع».. فكانت المحاولات ومازالت مستمرة ولكن ؟! هل حقاً نجحت الهيمنة الغربية الثقافية على فكرنا؟.

وقالت: رغم انبهار العديد من أفرادنا بثقافة غربية ترفع شعارات مناصرة لحقوق الإنسان والحفاظ على الحريات الشخصية ومحاربة العنصرية وإبداء الرأي و و و... ورغم غزوها لنا في عقر دارنا من خلال ثورة الرقمنة والشاشات الزرقاء والهواتف الذكية وامتداد شبكاتها لاقتناص فرائسها من أفكار الشباب إلا أنّ الكثيرين وعوا بأنّ قناعاً يرتديه الغرب وما يخفي خلفه من مقاصد حقيقية طامعة تستهدف فكرنا الثقافي وتسعى لجذبه وخداعه.. إنّ وراء الادعاءات بالحرية والديمقراطية يقبع غرب رأسمالي متوحش فقد أخلاقه في تعامله مع العديد من القضايا حين زيفت وسائله الإعلامية الحقائق وضللتها.

أمّا فيما يخصُّ ما يحدث من انتهاكات لحقوق الإنسان في الأراضي الفلسطينية المحتلة حين صوّر أصحاب الحق المدافعين ببسالة عن أراضيهم وحقوقهم بالإرهابيين الذين يهددون أمن المستوطنين الغازين.. واللعب على وتر تزييف الأخبار ظنّاً منهم أنّ وسائل الإعلام قادرة على كل شيء فيكفي ببساطة الاستيلاء على عقول البشر لفرض هيمنة تبدأ فكرياً لتطال كافة المجالات الأخرى تباعاً بالرغم من انجذاب البعض للغرب وثقافته و باعتبارهم مناوئاً لهم لاعتقادهم مصالحهم وامتيازاتهم يمكن أن يتمتعوا بها على حساب الشعوب الأخرى.

الأديبة أسمهان تساءلت أين الديمقراطية ؟؟؟ وها هم يستعملون ذات الطرق لإبعاد فكرة هيمنة جهة أخرى.. إنّ من يتسم بالفكر النير يستطيع استلهام أنّ كلمة هيمنة تراجعت حين أدرك أنّ جهاز تحكم استحوذ عليه الغرب بدأ يفقد فعاليته لأنّ هناك من امتلك دفّة قراره إنّها حقيقة اجتمعت فيها أعظم قوتين تجتاحان العالم أي مناهضة السلطة القائمة في الغرب وعودة آسيا إلى الساحة كي تمكّن الصين من تأدية دور قيادي عالمي.. ظهر الأمر في دافوس، خلال تدخل بكين الأخير في الصراع الأكثر جدلاً في العالم أي الصراع الفلسطيني-الإسرائيلي، القوة الآسيوية الصاعدة، ليس لها ماض استعماري في المنطقة، بل عنصر جديد يمكنه الإسهام في حلّ قضايا تبدو مستعصية كالقضية الفلسطينية - الإسرائيلية.. إنّ دور الصين المميّز والمتنامي في منطقة الشرق الأوسط يمكن أن يكون فعلاً مسماراً أخيراً يُدق في نعش التدخل الغربي وبالتالي فرض هيمنته الفكرية.

الثقافة الغربية ومساراتها الجديدة

من جهتها الأديبة نبوغ أسعد أشارت بأنّ الثقافة الغربية بسبب ظروف تعاني منها تأخذ في بعض الأحيان أكثر ما يطلب منها وما تتوقعه، وغريب جداً أن نرى بعض المثقفين ومنهم ذو شأن في الحضور، يستهلّون صفحاتهم على وسائل التواصل وخاصة الفضاء الأزرق «الفيس بوك» بما يخطر ببالهم من مقولات لكتّاب غربيين دون أن يستخدموا أيّة مقولة لكاتب عربي، لافتةً بأنّ الثقافة تشهد ضعفاً كبيراً بتناول الكتاب ما أدّى إلى ترك المجال لتسريب ما يريده الغرب من خلال العلاقات الإلكترونية. والجدير بالذكر أنّ ما يتسرّب ليس له أيُّ شأن مفيد يمكن أن يؤثّر على شخصية الفرد فيسبّب ضعفاً كبيراً في ثقة المجتمع بنفسه، ويتطلب عودة كبيرة للكتاب الورقي باعتباره الدرع الواقي.

بدورها الشاعرة ليلى غبرا رأت بأنّ الثقافة الغربية اتجهت إلى مسارات غير إنسانية في أهدافها، وراحت ترسل للآخرين غير ما تنشره في مداراتها، وتدّعي المحبة والعمل على التعاون؛ ولكن في الواقع تعمل على تشويه ما يعمل لأجله الآخرون وخاصةً العرب في مجال العبث بثقافة الماضي ومحاولة إلغاء سيرها ولكن من الواضح أنّ شعبيتها تراجعت كثيراً مع تراجع حضور الفعل الثقافي ولعبت من خلاله دوراً كبيراً في الثقافة الإلكترونية ومنها الهابطة.

تفوق سياسي واقتصادي

فيما لفتت الشاعرة طهران صارم بأنّ للهيمنة السياسية سبباً للتفوق السياسي والاقتصادي ويفرض الغرب حضوره وتأثيره في أزمات العالم، أما الهيمنة الثقافية فلكل شعب ثقافته الخاصة المتميزة عن غيرها من الثقافات إلا أنّ تأثير الغرب في ثقافة الشعوب الأخرى يتمظهر من خلال وسائل الاتصال والتكنولوجيا الناقلة لثقافة الغرب، طارحة مثالاً ما يروّجه الغرب حالياً حول الذكاء الصنعي وتطوره في مجالات مختلفة، حيث من الصعب الحكم إذا كان الغرب سيهيمن في المجال ذاته أم لا، وهل ستكون الأمم الأخرى قادرة على تجنُّب تغييرات سيفرضها التطور نفسه، وهل ستصمد الثقافات الأخرى أمام التقدم والخطوات المتسارعة للغرب في المجال ذاته؟ وأضافت بأنّ شعور النقص لدى شعوب الدول النامية أو شعوب العالم الثالث تجاه الحضارة الغربية جعلها فريسة سهلة تتخلى عن أصالتها وتبدأ بالتقليد الأعمى، آخذة عن الغرب ثقافته دون الاهتمام بطبيعة تناقض تفرضه البيئات وخصوصية الجغرافيا والإيديولوجيا ما يجعلها تذوب في بوتقة الثقافة الغربية متخلية عن وجهها الحقيقي، وبنفس الوقت تكون غير قادرة على أن تحجز لها مكاناً في الثقافة الأخرى.

ورأت أنّ الاطلاع وتلاقح الثقافات مسألة مهمة جداً للتطوّر وولادة مفاهيم جديدة؛ ولكن حين تشعر بعض الثقافات بدونيتها «شعوراً خاطئاً ناجماً عن سياسات خاطئة» فإنّ التلاقح سيكون كارثياً عليها وعلى هويتها الثقافية.

الهيمنة الثقافية الغربية في تراجع وانحدار ..

فاتن دعبول

كثيراما نتداول مقولة :إن حربنا مع الغرب وخصوصاً الغرب المعادي، هي حرب ثقافية، ويتضح ذلك في التغييرات التي تطرأ على الشعوب العربية من تغيير في السلوكيات والمعتقدات والمفاهيم، ما يؤكد تأثيره الكبير في غزو الشعوب العربية ثقافياً، وربما ساهمت الحروب العسكرية في هذا الغزو سابقاً، واليوم تلعب وسائل التواصل الاجتماعي والتقنيات الحديثة الدور نفسه وربما هو الأخطر.

ولكن في ظلّ التحالفات الجديدة وإعادة تشكيل العالم من جديد، ربما بدأ هذا الدور يتراجع، فهل حقاً بدأ الغرب يفقد هيمنته الفكرية والثقافية، وما الأسباب التي تساهم في هذا التراجع إن كان تراجعاً حقيقياً وليس وهماً.

ومن أجل الوقوف على حقيقة ما يجري في العالم، توجهنا بالسؤال إلى عدد من الكتاب والمفكرين، والبداية كانت عند د. سليم بركات الباحث وعضو اتحاد الكتاب العرب، يقول :

للمؤسسات الاجتماعية دورها

إن الهيمنة الثقافية تشير إلى معنى السيطرة والتحكم بالوسائل الإيديولوجية، وعادة ما يتم تحقيقها من خلال المؤسسات الاجتماعية التي تسمح لمن هم في موقع الهيمنة والسيطرة بالتأثير بقوة على سلوكية المجتمع من حيث القيم والمعايير والأفكار والتوقعات النظرية والعملية، وتروّج هذه الهيمنة بطريقة شمولية تفرضها الطبقة المهيمنة للسيطرة اجتماعياً واقتصادياً على أنها عادلة وشرعية ومصممة لصالح المجتمع بحسب وجهة نظرها.

علما أن فوائد هذه الطريقة في الترويج لا تعود بالفائدة إلا على الطبقة المهيمنة فقط، وهذا النوع من التسلط يختلف عن التحكم بالقوة، لأنه يسمح للطبقة المهيمنة بممارسة سلطتها وهي تستخدم جميع الوسائل السلمية، باختصار الهيمنة الثقافية هي الاتفاق الضمني بين البشر على تطبيق معتقدات وقيم الطبقة المهيمنة الحاكمة بغض النظر عن نشأتهم البشرية وتجاربهم الاجتماعية.

وأوضح بدوره أن الفيلسوف الإيطالي» أنطونيو غرامشي» ١٨٩١، ١٩٣٧ هو من طوّر هذا المفهوم» الهيمنة الثقافية، معتمداً نظرية كارل ماركس القائلة بأن الإيديولوجيا المهيمنة تعكس معتقدات ومصالح الطبقة الحاكمة من خلال السيطرة على المؤسسات الاجتماعية مثل المدارس والكنائس والمحاكم ووسائل الإعلام، لأن هذه المؤسسات هي من تقوم بعمل التنشئة الاجتماعية ضمن معايير وقيم ومعتقدات الفئة الاجتماعية المسيطرة هذا من جهة.

ومن جهة أخرى اعتماد غرامشي في تطوير هذا المفهوم على تبرير الرأسمالية الغربية، ومضمونه أن أولئك الذين نجحوا اقتصادياً قد كسبوا ثروتهم بطريقة عادلة ومنصفة، وإنّ من يكافحون اقتصادياً يستحقون دولتهم الفقيرة، إنه الشأن الصحيح للفطرة السليمة من وجهة نظر ليبرالية.

فرض الثقافة البديلة

وأضاف بركات: إن مفهوم الهيمنة الثقافية من حيث الشكل الخارجي مفهوم واسع ومشتت، يختلف الباحثون فيه، لكن تحديده الإجرائي يرتكز على التسلط والإكراه وتقليد المغلوب للغالب كما يقول ابن خلدون، ومثال على ذلك ما تقوم به الهيمنة الغربية الاستعمارية من خلال احتلالها واستغلالها للشعوب الأخرى، دون أن تحرك هذه الشعوب ساكناً لمواجهتها.

أما الشكل الخفي للهيمنة الثقافية فيحدد في اتجاهين خارجي وذاتي، الخارجي تبرز فيه الخطط الاستعمارية الاستراتيجية طويلة الأمد، والذاتي تبرز فيه الآليات الخفية المتحكمة بالعقل بشكل لا شعوري، وهي من أهم أشكال التسلط والهيمنة والأشدّ خطورة من السيطرة الاستعمارية.

الهيمنة الثقافية ظاهرة ترمي إلى نشر ثقافة الطرف المهيمن كبديل عن الثقافة القائمة، والغاية سيادة نموذج واحد للتفكير، ونشر قيم بديلة تعطل الإبداع، كما تفعل الثقافة الغربية وفي طليعتها الأميركية المهيمنة على العالم، والتي تقوم على الحياد الفردي، الخيار الشخصي، والاعتقاد بالطبيعة البشرية التي لا تتغير إلا من خلال غياب الصراع الاجتماعي المؤدي للاستسلام للشركات المستغلة التي تستبعد الصراع الاجتماعي ،ولاسيما في عصر العولمة المؤدي إلى عالم منكمش أو منضغط الزمان والمكان والذي أدى إلى ظهور نظام عالمي جديد وتقسيم متفاوت ومستقطب تبرز فيه الموارد المالية وتكنولوجيا المعلومات متخطيّة الحدود باستخدام الإنترنت مثلاً.

توصف الهيمنة الأميركية اليوم على أنها مرتكزة على ثلاث ركائز» الجبروت العسكري، القوة الاقتصادية، القوة الناعمة» وتعد القوة العسكرية من حيث الوعي السبب الأكثر أهمية لانحدار أي قوة عظمى، وهذا يعني أن من أسباب تراجع الهيمنة الأميركية هو تعرضها للتحدي في النظام الدولي، ولاسيما من قبل الصين وروسيا والهند، وكذلك موقفها من العالم في إطارعدم المساواة الذي يفصل ثروتها المتعاظمة عن فقر الآخرين، والذي يتطلب توقفها عن أهدافها الغامضة وغير الواقعية فيما يخص حقوق الإنسان المخترقة من قبل الهيمنة الأميركية بكلّ ما تحمل الكلمة من معنى.

من هنا نستنتج تفاقم العوامل الداخلية والأزمات البنيوية وعبثية النظام الليبرالي الذي تعيشه أميركا، والذي يسبب في انهيارها من الداخل، وأن الديمقراطية التي تدعيها وتروجها لا معنى لها في ظلّ هيمنة الطبقة الأميركية الرأسمالية، ونحن لا نبالغ عندما نقول :إن المذاهب غير المنطقية التي تستخدمها السياسة الخارجية الأميركية للدفاع عن نفسها، والمتضمنة توسع تحالفاتها العسكرية، إنما هي للهيمنة العسكرية على العالم.

كما لا نجانب الحقيقة أيضاً إذا قلنا :إن أميركا لن تكتفي بهذه التحالفات، بل أنشأت الحكومات الوصية لتطويق الدول التي تعاديها كما تفعل مع روسيا والصين وفنزويلا وفيتنام وإيران وسورية وأجزاء أخرى من العالم، على الرغم من تكاليف هذا الإنشاء، الأمر الذي يستوجب على الأميركيين البدء في الاستعداد لمستقبل متعدد الأقطاب، بالابتعاد عن اعتمادهم الغريزي على القوة الصارمة والإكراه، وهذا لا يكون إلا بإعطاء الديبلوماسية الحقيقية والسلمية دوراً كبيراً.

الشعوب تقاوم

ويضيف بركات: ما تفعله أميركا من تدمير للمواضيع المهمة والحساسة في المجتمعات البشرية مثل تدميرالهوية وممارسة العنصرية والاستبداد والعمل على إفقار الشعوب والسيطرة والفوضى والدمار، كل ذلك يدفع الشعوب لمواجهة أميركا وتحدي أخطارها وإلى عالم ما بعد أميركا والذي قد يكون الوصول إليه عن طريق القوة أو السلام، كيف لا ودول كثيرة تتحرك لتحقيق مصالحها بعيداً عن الولايات المتحدة الأميركية كروسيا التي لم تفعل حتى الآن سوى القليل لرد الأعداء في الحرب الأوكرانية.

كيف لا والإمبراطورية الأميركية قد أصبحت مثل الاتحاد السوفييتي السابق منهمكة بأخطائها وهي تعيش على اعتقاد عفا عليه الزمن وهو أن لديها من المعرفة والقوة ما يغير العالم إذا استخدمت هيمنتها العسكرية والاقتصادية لتغيير المجتمعات الأخرى.

ويخلص د. سليم بركات إلى القول :إنه بعد أن تفرّدت الولايات المتحدة الأميركية بالطاقات والخبرات من شتى دول العالم، لتحقق أعظم نهضة تكنولوجية وأعظم اقتصاد عالمي، تقوم اليوم بتحطيم كلّ إنجازاتها بتوحش وغباء، وهذا هو جوهر موقفها من الصين وروسيا والهند وإيران وحتى أوروبا، وباقي دول العالم، وفي الطليعة سورية.

الأمر الذي جعلها في مواجهة العالم بأسره، لتكون كغيرها من الإمبراطوريات التاريخية في أطوار من الصعود والأفول، وقد لا تهزم من قوة خارجية تؤدي لسقوطها، ولكن قد تهزم من الداخل، كيف لا والشعب الأميركي يعاني ما لا يمكن حصره وعده من الظلم في الداخل الأميركي، ومن المرجح أن نظاماً عالمياً جديداً قد يفسح المجال للشعب الأميركي في بناء حضارة أميركية جديدة وبعيدة عن الخرافة الحضارية الأميركية الحالية، القائمة على المركزية الإمبريالية الصهيونية، وثقافتها المتوحشة المعادية لشعوب العالم.

لهذا يفقد الغرب هيمنته الثقافية

عبد الحميد غانم

أعتقد مثل هكذا سؤال لا يجب أن يطرح وفق هذه الصيغة، لأن الفكر والثقافة لايهمنان، بل ينتشران ويسودا وكما لا يوجد مصطلح صراع الحضارات، الذي يستخدم كخطأ شائع، كذلك الأمر بالنسبة للفكر والثقافة.

فالهيمنة والسيطرة للقوة الضاربة الغازية أو المحتلة أو المعدنية.

طبعاً هيمنة مؤقتة، طال الزمن أم قصر، فكلّ الغزوات الأجنبية التي تعرضت لها منطقتنا العربية طوال تاريخها، انتهت واندحرت ، لأن الهيمنة الأحادية سواء أكانت سياسية أم عسكرية أم اقتصادية، أو في أي مجال، دون الفكر والثقافة.

لأن مجال الفكر والثقافة مجال رحب للتفاعل والتحضر.

شهد عالمنا عبر التاريخ نظريات وأفكار ساهمت في تطوير الدول والشعوب، واستطاعت أن ترتقي بها نحو عالم أفضل.

وقد أسهمت النظريات والأفكار الأوروبية والأميركية مثلها مثل باقي النظريات في العالم في تطوير أحوال البشر وإعطاء القيم الإنسانية مدلولات ومعان هامة ارتقت بالفكر الإنساني.

لكن الغرب بممارساته العدوانية على حقوق الشعوب وسيادة الدول، أفرغ الكثير من الأفكار والنظريات السياسية حول الديمقراطيات والحريات والعدالة الاجتماعية من محتواها الإنساني، وحولها إلى أدوات لعدوانه في استهداف الدول المقاومة لمخططاته ومشروعات هيمنته.

لقد فقد الغرب اليوم لغة العقل منذ أن تحول إلى سياسات الاستعمار والاحتلال منذ عشرينات القرن الماضي وإلى الآن، حيث لا تزال نزعة الاحتلال والاستعمار مستمرة في توجهاته وتعاطيه مع قضايا منطقتنا والعالم، وتصنيف من يعارض مشروعه العدواني الاستكباري والاستعماري، وبرأيه يجب أن ينال عقاباً من اختياره.

لقد سعى الغرب في هيمنته السياسية والعسكرية والاقتصادية إلى هيمنة ثقافية من خلال تسويق نموذجه في ثقافات العالم، واستغلال هيمنة إعلامه لإحكام الهيمنة والسيطرة على الفكر والشخصية والهوية والثقافة والانتماء إلى الوطن والأمة.

إن معظم سياسات الغرب التي تحدث اليوم تهدد بفناء البشرية جمعاء، فأين الخير فيها؟.

تلك السياسات أصبحت تعاني مرض الأنا، وصارت مهووسة بسياسة القتل وارتداء ثوب الرداءة والكراهية والظلم والاستبداد، إذ تسعى الليبرالية الحديثة التي أنتجتها سياسات الغرب إلى أن يكون الإنسان مثل الكائن الذي يجرّد من كلّ شيء سوى غرائزه، ويحوله إلى حالة روبوتية، يسعد بفردانية مريضة، وهو ما تعكسه السياسات الغربية وغايات الحروب التي تشعلها وتريد من شعوبها تأييدها والسير خلفها دون أن تفسح المجال للعقل والحكمة والحلول الرشيدة.

تثبت حقائق التاريخ أنّ من أسباب سقوط الإمبراطوريات العظيمة، هو الظُلم والتعالي على الآخرين، وأنّ الإمبراطوريات تدمّر نفسها بنفسها في الغالب، وأنّ سرعة التدمير تعتمد على الآلية التي تستخدمها كلُ إمبراطورية في الهيمنة، وأنّ الآلية الأميركية المعاصرة للهيمنة لم تختلف عن سابقاتها، حيث تستخدام الدولار الأميركي في الهيمنة الاقتصادية والسِياسية، وبعدها الهيمنة العسكرية على العالم.

وهو ما يتهدد استمرارها خصوصاً نتيجة مخططها لتوسيع الناتو شرقاً.

فلم ينتبه الأميركيون إلى تحذيرات الرئيس أيزنهاور في خطاب الوداع سنة ١٩٦١م من الصُعود الكارثي للقوّة في غير محلّها في أيدي «المجمع الصِناعي العسكري، وهو المجمّع الذي يؤدّي دوراً رئيسيّاً في توجيه السِياسات الخارجية لأميركا نحو إشعال الحروب وإطالة أمد الصِراعات.

لقد مثّلت هجمات ١١ ايلول ٢٠٠١م، والحروب العالمية التي ادّعتها أميركا على الإرهاب، والنتائج المخزية بعد ٢٠ سنة من غزوها لأفغانستان والعراق، الدعوة للاستيقاظ من وَهْم الهيمنة أحادية القطب، وقد بلغت ذروة ملامح ذلك الوَهْم بالانسحاب الأحادي الفوضوي والمهين من أفغانستان عام ٢٠٢١م، وبعد ذلك إشعال الحرب في أوكرانيا، وهو ما أدخل العالم في فترة من التحوُلات، التي ستحدّد الواقع الجيو سياسي في المستقبل، عبر التغيُرات الهائلة في الجغرافيا السِياسية، وهياكل النظام العالمي القادم.

لقد هزّت المصداقية الدولية لأميركا والغرب عموماً، مما فتح آفاق التعاون الدولي بين الصِين والهند وروسيا وسورية وإيران وآسيا وإفريقيا وأميركا اللاتينية خارج الهيمنة الغربية، وبدأ القطبُ الأميركي الأحادي ودكتاتورية النظام الغربي يفقد سيطرته على العالم.

وتر الكلام

حائط استنادي..!

سعاد زاهر

يزداد صعوبة التحكم بالمواد الثقافية، بسبب التكنولوجيا التي فتحت العالم على بعضه، وأصبح التفلت عنواناً عريضاً للمضمون الثقافي، المنتشر بطرق مختلفة على مواقع التواصل، ولكن إذا عقدنا مقارنة بين هذا المحتوى وذاك الموجود في الكتب والمجلدات العريقة ذات المحتوى الإبداعي والذي يمكنها أن تؤسس لوعي وهوية محلية متأصلة، لصالح من ستكون النتيجة...؟

بالتأكيد لصالح منتج يتداعى إلينا أينما كنا عبر شاشاتنا والمشكلة أن هذا المحتوى متأثر إلى حد كبير بالفكر الغربي، في ظل كل هذا الانتشار هل يمكن للفكر الغربي أن يفقد هيمنته...؟

هذا المعطى الأخير لا يبدو واقعياً يمكن لنا أن نشتغل على تراخي قبضته، من خلال تقديم محتوى ثقافي محلي، عميق وجذاب يتلاءم مع معطيات روحنا الفكرية، ولكن في حال تمكنا من تقديم هذا المحتوى بمستوى إبداعي، هل يمكن تلقفه إن لم نؤسس لمناخ واقعي يجعلنا قادرين على الانفتاح على ثقافتنا المحلية، دون أن تعيق وصولها للجمهور الصعوبات التي يمكنها أن تخنق أي تطلعات ثقافية إن لم تخف وطأتها.

ربما لا يوجد خاسر أو رابح لأن كل هذا الضخ، أياً كان نوعه يؤسس لمرحلة فكرية مختلفة، ولكنها في الوقت ذاته تحتاج لبناء ذهن الإنسان بطريقة مغايرة، وربما المعادلة الأخيرة هي الحكم، حين يكون بناء الوعي والشخصية متيناً متكلاً على مبادئ وقناعات لا تتصلب أو تتراخى، على الأقل سننجح في خلق حائط استنادي.

العالم ليس حقلاً غربياً

وفاء يونس

لعل أكثر الدراسات قدرة على تشريح مرض الغرب في مركزيته كانت دراسة الدكتور عبد الله إبراهيم الذي يرى الحديث عن المركزية الغربية ليس تَرَفاً فكرياً يروق لهذا المفكر أو ذاك، ولا إنشاء لغوياً فضفاضاً معبّراً عن انفعالات اتجاه ما أحدثته من تأثير في العالم المعاصر خارج المحضن الغربي لها، بل مسؤولية نقدية قصدت بها مشاركة القارئ الأفكار التي شغلت بها طوال ربع قرن، وشأنُ كلّ حديث يروم الحفر في الظواهر الكبرى، أبدأ بتأصيل المفهوم الإشكالي للمركزية الغربية أخذاً في الحسان، أنها نزعة خلطت الأيديولوجيا بالمعرفة.

يتعذّر تحديد الوقت الذي وُلد فيه مفهومان متلازمان هما: «أوروبا» و«الغرب»، فهما من تمخضات تلك الحقبة الطويلة والمتقلّبة، التي يُصطلح عليها بـ «العصر الوسيط»، الحقبة التي طوّرت جملة من العناصر الاجتماعية والدينيّة والسياسية والثقافية، فاندمجت لتشكّل «هويّة» أوروبا، وبانتهاء تلك الحقبة، ظهر إلى العيان مفهوم «الغرب»، وسرعان ما رُكّب من المفهومين المذكورين مفهوم جديد هو «أوروبا الغربية»، وهو مفهوم لم يمتثل للمعنى الجغرافي الذي يوحي به، فقد راهن على المقاصد الثقافية والسياسية والدينيّة، ومن ثمّ ثبّت مجموعة من الصفات والخصائص العرقية والحضارية والدينيّة على أنّها ركائز ثابتة تشكّل أسس هوية الغرب، وغذّى هذا الاختزال ولادة مفهوم حديث ذي طبيعة إشكالية هو «المركزية الغربية».

اقترنت ولادة «العصر الحديث» مع الممارسة الغربية في ميادين المعرفة، والصناعة، والاكتشافات الجغرافية، وبناء مؤسسة الدولة في الوقت الذي جعل مفهوم المركزية الغربية من الغرب عالماً خالداً في تاريخه وثقافته ودوره الحضاري في العالم، مارس إقصاءً منقطع النظير لكلّ ما هو ليس غربياً، دافعاً به إلى خارج الفُلك التاريخي الذي أصبح «الغرب» مركزه، وأباح لنفسه حق استغلاله والسيطرة عليه، وبذلك، اقترنت ولادة «العصر الحديث» مع الممارسة الغربية في ميادين المعرفة، والصناعة، والاكتشافات الجغرافية، وبناء مؤسسة الدولة بركائزها الاقتصادية والاجتماعية والعسكرية والسياسية.

لقد جرى تأويل العالم على أنه حقل غربي لا يجوز لغير الغربيين الانتفاع بخيراته، وأفضى كلّ ذلك إلى نوع من التمركز حول الذات بوصفها المرجعية الأساسية لتحديد أهمية كلّ شيء وقيمته، وإحالة «الآخر» إلى مكوّن هامشي، لا ينطوي على قيمة بذاته، إلا إذا اندرج في سياق المنظور الذي يتّصل بتصوّرات الذات المتمركزة حول نفسها، هذا من ناحية التاريخ الثقافي والسياسي، أما من ناحية الفرضية التي استقامت عليها المركزية الغربية، فإن كلّ مركزية لابد أن تقوم على فكرة الاختلاق السردي الخاص لماض مرغوب يُشبع تطلعات آنيّة، ويوافق رغبات قائمة، فهذه سُنّة المركزيات، وبمواجهة الحاجة إلى توازن ما تُصطنع ذاكرة مركزية توافق تلك التطلّعات والحاجات.

استمدّ مفهوم التمركز الغربي مكوّناته من الدلالة المباشرة لـ (Egocentricity)، التي تفترض غلبة وجهة نظر الذات وصوابها، وهي متصلة بعالم الطفولة، إذ تتجلى الأنانية المفرطة التي توافق مرحلة من نموّ الطفل تجعله يركّز العالم في أناه الخاصة، لأن وجدانه لا يتفتح على الآخرين إلا بقدر ما يكون هؤلاء مجموعة من العناصر في أفقه الذاتي، فيصعب عليه أن يفهم الأشياء من غير منظاره الخاص، ولا يُعطي أيّ اعتبار للآخرين واهتماماتهم، الأمر الذي يؤدي إلى أن يختلط لديه الموضوع بالذات، صار الغرب لا يرى العالم إلا بما يرغب هو فيه، ويريده، فيظهر نوع ملتبس من التفكير القائم على الرغبة **Wishful thinking**، وهو تفكير خطير، يخلع الأهمية على ما يريد، وليس على ما يفيد.

وبالأخذ بهذا التخيل الطفولي عن الذات، صار الغرب مصدراً لمدنيّة جديدة متمركزة حول نفسها، فيما وسم العالم الآخر بالتوحش والهمجية، وأصبح القول بـ «حيّوية أوروبا» و«خمول العالم» شائعاً في العصور الحديثة، فـ«أكاديمية علوم باريس» تؤكد، في القرن الثامن عشر «أنّ أوروبا هي ما تغيّر، وما يتغيّر، بتقدم معارفنا»، و«كل أجزاء العالم الأخرى هي في الجمود».

برزتْ أوروبا بوصفها مكوّناً ثقافياً طاغياً، وحيثما شاعت نظمها الفكرية والسياسية والاقتصادية تكون أوروبا، فقد اختُزل العالم لكي ينطوي تحت شمولها، وانتظم الفتح والكشف والتبشير والاحتلال في سياق فكرة واحدة هي: بناء هوية أوروبا، وتعميم قيمها على العالم، ومن أجل أن يتحقّق يلزم الإجهاز على المكوّنات الحضارية القائمة في العالم، وإذا تعذّر ذلك فاختزالها إلى أنماط معيقة لعلاقات جديدة تهدف إلى وحدة الإنسان والتاريخ.

نضّد قاموس (تريفو) في النصف الثاني من القرن الثامن عشر، للأوروبيين الخصائص الآتية: «الأوروبيون هم شعوب الأرض الأكثر تهذّباً، والأكثر تمدّناً، والأحسن صُنعاً، يبزّون جميع شعوب سائر العالم في العلوم والفنون، إنهم أكثر بسالة، أكثر فطنة، أكثر كرماً، أكثر نعومة، أكثر اجتماعية، وأكثر إنسانية».

فرضت أفكار «السموّ الأوروبي»، وفكرة «امتدادية أوروبا»، وفكرة «أوروبا مركز العالم»، نفسها اعتباراً من القرن الثامن عشر، حيث تصبح أوروبا «الوسيط للتقدم الكوني»، و«السيد المعطاء» الذي ينبغي على العالم أن يكون «معتمداً عليه سياسياً وتكنولوجياً»، كما قال الفيلسوف برتراند رسل، وذلك أنّ ما تهدف إليه الحضارة الغربية، كما ذهب المؤرّخ توينبي، أي «جمع العالم الإنساني كله في مجتمع كبير واحد، والسيطرة على كل شيء فوق هذه الأرض، وفي البحار والأجواء، التي ستصل إليها الإنسانية عن طريق التقنية الغربية الحديثة».

قرّرت المركزية الغربية قولها بالخصوصية المطلقة لتاريخ الغرب، الذي أثمر عن حضارة غنية ومتنوعة، ثمّ تأكيد أنّ المجتمعات الأخرى، التي تريد أن تبلغ درجة التقدم التي وصل إليها الغرب، ليس أمامها إلا الأخذ بالأسباب ذاتها التي أخذ بها الغربيون، وليس أمامها إلا التخلص من خصوصياتها الثقافية، لأن تلك الخصائص هي المسؤولة عن تخلفها، وهي المعيقة لتطورها.

وبهذا لم تقف المركزية الغربية عند حدود تقديم رؤية غربية للعالم، بل تقدمت بمشروع سياسي على صعيد العالم هو: مشروع تجانس الإنسانية المستقبلي من خلال تعميم النموذج الغربي، وخطورة هذا المشروع متأتية من أنه سوّغ التوسع الغربي، واحتلال العالم، وإبادة الحضارات العريقة، وأحياناً إبادة شعوب بأكملها، كما حصل في حالة فتح الأمريكيتين وأستراليا.

وجرى بذل جهد جبّار، طوال القرون الخمسة الأخيرة في معظم أرجاء المعمورة، لزرع بذور النموذج الغربي في كثير من تفاصيل الحياة، وفي الوقت ذاته شهد العالم انهيار نماذج ثقافية لا تحصى، من دون العثور على نموذج كفء يراعي مكونات الهوية الثقافية للأمم غير الغربية.

وأجملُ أثر المركزية الغربية في المجتمعات المعاصرة بالصورة الآتية:

١. لم يقتصر الأمر في المركزية الغربية على إنتاج ذات غربية مطلقة النقاء، وخالية من الشوائب التاريخية، إنما - وهذا هو الوجه الآخر لكلّ تمركز- لا بد أن يتأذّى عن ذلك تركيب صور مشوّهة للآخر، وبين الذات الصافية التي تدّعي النقاء المطلق، والآخر الملتبس بالتشوه الثقافي، والديني، والفكري ينتج التمركز أيديولوجيا استبعادية ضد الآخر، وأيديولوجيا طهرانية خاصة بالذات، الغرب مصدر الخير كلّه، وسواه مصدر الشرور كلها.

٢. ما يمور به العالم من تنازعات كبرى مرجعه - في الغالب- الانحباس في تصورات مغلقة عن الذات والآخر، وقد دار جدلٌ طويل حول تفسير تلك التنازعات، أقصد التنازعات التي توجّهها المرويات الكبرى، وانتهى الأمرُ إلى الأخذ بتفسيرين: أولهما صراعُ الحضارات، وثانيهما صراعُ الأصوليات، ومع أن المجتمعات في العصر الحديث طوّرت ما يكفي من أسباب التنازع كالأيديولوجيات المطلقة، والاستبداد، والاستغلال، والمصالح، لكن الأمرَ الذي تقترحه هذه المحاضرة، هو أن النزاعات الكبرى، هي نتاجٌ لمركزيات وجدتْ لها دعماً من أطراف التنازع، وفي مقدمتها المركزية الغربية التي فرضت وصاية الغرب على العالم.

٣. أقام التصوّر الذي أنتجته المركزية الغربية للآخر معرفة تخيلية وقع فرضها بالإكراه، وهي معرفة لم تحط بشؤون المجتمعات الإنسانية، فبرز نوع من التمثيل المتناقض الذي اصطنع تمايزاً بين الذات الغربية والآخر الأجنبي، أفضى إلى متوالية من التعارضات تسهّل إمكانية أن يقوم الطرف الأول في اختراق الثاني، وتخليصه من خموله، وضلاله، وبوهيميته، ووحشيته، وإدراجه في عالم الحق، وتغلغل هذا التصوّر في تضاعيف الخيالات العامة، وتحكّم في توجيه الأفكار وصوغها، وركد تحت أكداس الخطابات، والممارسات، فحَجَبَ إمكانية للبحث في أمر تعديل الصور النمطية عن الآخر.

٤. ترسخ خلال العصر الحديث تصوّر يقول بأن الصواب والحق والقوة والتقدم يتدفق من الغرب باتجاه أركان العالم الأربعة، ولم يحدث العكس، هنالك تيار عارم ينبع من مكان بعينه، ويروي ظمأ العالم للمعرفة والعدالة والمساواة، ولا يجرؤ أحد بعكس اتجاه هذا التيار، أو تغيير اتجاهه، لكن فحص نتائج ذلك التيار في معظم أرجاء العالم لا تؤكد وجود تلك المعرفة والعدالة والمساواة، امتصت المركزية الغربية إشعاعات العالم، وتركته معتماً.

٥. أنتجت المركزية الغربية خطاباً عنصرياً فحواه تملّك الآخر لدونيته، فلم يضع غير الغربيين في مستوى رتبة الغربيين، بل حجزوا في رتبة التابع، وسعى ذلك الخطاب إلى تثبيت صور راكدة للمجتمعات المستعمَرة، وروّج لفكرة التبعيّة، ومؤدّاها ألاّ سبيل لبعث الحراك في ركود المجتمعات الأصليّة إلاّ باستعارة التجربة الغربيّة في التقدّم.

أدونيس: نيويورك ورم زائد على الوجود

ما قدّمه أدونيس في كتابه المهم: (كتاب الغرب) الصادر عن دار التكوين وهو قراءات متعددة في الثقافة والفكروالسياسة والحضارة.

عرى جنة الوهم عند من يتوهمونها وراء لجة البحار و يظنّون أن المن والسلوى حيث تقوم ناطحات السحاب وحيث كل إنسان مجرد رقم في بطاقة ما.

يحلم الكثيرون أن يصلوا الغرب ولكن ماذا عن الذين وصلوه وعاشوا فيه، وقرؤوا بنيته الفكرية والاجتماعية التي تبدو كما أسلفنا، مرآة تشدّ لكنّها في واقع الحال وبعد التجربة هشيم بل بيت عنكبوت تمزق مرات ومرات.

أدونيس واحد من أهم المفكرين العرب والعالميين في المشهد كلّه ... عاش في الغرب وخبره يبحر محللاً أعماق الوسط الاجتماعي ... حصيلة التجربة كلّها في كتابه هذاوقد جاء الكتاب احتفاء بدخول أدونيس العقد التاسع من العمر

الكتاب سفر كبير يقع في أكثر من ٨٥٠ صفحة من القطع الكبير والتجليد الفني الفاخر..

وكان اللافت أن يفتتح الكتاب بقصيدة أدونيس قبر من أجل نيويورك.. تبدو القصيدة الملحمة استشرافاً للتاريخ والحراك الحضاري والتقني وقراءة في مسارغطرسة القوة .. نيويورك التي تدير العالم عبر حبالها السرية وأدوات فتكها المعلنة وغير المعلنة ... هي الوجه الهمجي لكلّ جبروت الآلة والطغيان المادي.

تبدو سماء من الأضواء التي تعجّ بالحياة لكنّها في الواقع حياة منخورة أكلها الصدأ تنقل عفنها إلى العالم.

تعمل على نقل بثورها إلى الخلايا السليمة وكأنها لا تريد أن ترى بقعة من العالم إلا وأكلها الصدأ وتغلغل الموت في ثناياها...

ونيويورك ليست إلا طفحاً أو ورماً زائداً على الوجود.. بل ربما زوالها يريح البشرية من ثآليل الجرب وويلات الحروب.. يقول أدونيس في هذه الملحمة التي تعود إلى سبعينيات القرن الماضي..

حتى الآن، تُرسم الأرض إجاصة أعني ثدياً لكن، ليس بين الثدي والشاهدة إلا حيلة هندسية:

نيويورك، حضارة بأربع أرجل، كلّ جهة قتلٌ وطريقٌ إلى القتل، وفي المسافات أنين الغرقى.

نيويورك، امرأة. تمثال امرأة في يدٍ ترفع خرقة يسميها الحرية ورقٌ نسميه التاريخ وفي يدٍ تخنق طفلةً اسمها الأرض.

نيويورك، جسدٌ بلون الإسفلت. حول خاصرتها زنارٌ رطب، وجهها شباك مغلق.. قلت: يفتحه وولت ويتمان . «أقول كلمة السر الأصلية» . لكن لم يسمعها غير إله لم يعد في مكانه. السجناء، العبيد، اليائسون، اللصوص، المرضى يتدفقون من حنجرته، ولا فتحة، لا طريق. وقلت جسر بروكلين! لكنّه الجسر الذي يصل بين ويتمان ووول ستريت، بين الورقة . العشب والورقة . الدولار...

نيويورك . هارلم، من الآتي في مقصلة حرير، مَن الذاهب في قبر بطول الهدسون؟ انفجر يا طقس الدمع، تلاحمي يا أشياء التّعب، زرقة، صفرة، ورد، ياسمين والضوء يسنّ دبابيسه، وفي الوخز تولد الشمس، هل اشتعلت أيها الجرح المختبئ بين الفخذ والفخذ؟ هل جاءك طائر الموت وسمعت آخر الحشرجة؟ حبل، والعنق يجدل الكآبة وفي الدم سوداء الساعة...

نيويورك . ماديسون . بارك افينيو . هارلم، كسلٌ يشبه العمل، عملٌ يشبه الكسل. القلوب محشوة اسفنجاً والأيدي منفوخة قصباً. ومن أكداس القذارة وأقنعة الامبايرستيت، يعلو التاريخ روائح تتدلى صفائح صفائح:

ليس البصر أعمى بل الرأس، ليس الكلام أجرد بل اللسان نيويورك . وول ستريت . الشارع ١٢٥. الشارع الخامس، شبح ميدوزي يرتفع بين الكتف والكتف. سوق العبيد من كل جنس، بشرٌ يحيون كالنبات في الحدائق الزجاجية، بائسون غير منظورين يتغلغلون كالغبار في نسيج الفضاء . ضحايا لولبية، الشمس مأتمٌ والنهار طبل أسود.

امرأة من الغش..

ونيويورك التي يعدّها الغرب رمز حضارته ليست إلا طبقة من الرياء والكذب حتى في تماثيلها يقول..

تفتتي يا تماثيل الحرية.. أيتها المفروشة في الصدور بحكمة تقلد حكمة الورد....

الريح تهب ثانية من الشرق تقتلع الخيام وناطحات السحاب...

نيويورك .. امرأة من الغش والسرير يتأرجح بين الفراغ والفراغ .. ها هو السقف يهتريء.. كلّ كلمة إشارة سقوط .. كلّ حركة رفش أو فاس.. وفي اليمين واليسار أجساد أن تغير...

ونيويورك - نيويورك = القبر أو أي شيء يجيء من القبر

نيويورك - نيويورك = الشمس..

تلك هي معادلة الحياة في ملحمة أدونيس وكما أسلفنا فما زالت ندية بهية تشع قدرة على قراءة مسارات التاريخ وما تمضي إليه غطرسة الجنون الأميركي.

الإنسان الآلة...

والحضارة التي يعيشها البشر الآن كما يرى أدونيس هي حضارة مريضة لحظة مرض وسواء سميت بما سميت ... فإن الأمر لا يتغير نوعاً وإن تغيّر في الدرجة بحسب الشعوب والمناطق والظروف التاريخية والاجتماعية..

ويتمثل هذا المرض بالنسبة لي في أنه لم تعد للإنسان قيمة في ذاته ولذاته بوصفه إنساناً أياً كان موطنه وانتماؤه .. فقد أصبح الإنسان يقوم بوصفه مجرد وظيفة استخدام مجرد أداة أو شيء.

بل لقد أصبح هو نفسه آلة وربما صار الانقلاب عليه وشيكاً.. كما تمرد الإنسان على خالقه فإن الآلة سوف تتمرد هي نفسها على الإنسان..

ولهذا فإن الموقف من الحضارة الحديثة يتجاوز موقف النقد إلى إعادة البناء فالإنسان جوهرياً في ضوء ما يحدث في العالم اليوم .. إنما هي إعادة بناء العالم برؤية جديدة.

ويرى أدونيس أن المفارقة التي تصل إلى درجة العبث الفاجع هي أنك تجد في الغرب ثقافة ضدية تعارض تلك الصناعة الآخذة في تحويل الإنسان إلى شيء بين الأشياء بينما تجد في المجتمع العربي من يدافع عن الاصطناع الذي لا يشوه صورة العربي وحسب وإنما يستأصله من ذاته وهويته.

بينما نجد الفرح عندنا بهذا الاصطناع اقتناء اتفاقاً استهلاكاً.. ويراه البعض مظهراً يساويهم بالغرب.. ويطمس الرأس المال العربي تحت هذا الاصطناع، في الغرب ينصرف الرأسمال الإنساني إلى الإبداع والإنجاز هكذا يزداد تقدّماً فيما نحن نزداد انقياداً لاقتناء ما يبدعه استسلاماً له .. إنه بالمعنى الحرفي .. لا يأسر طاقاتنا وحدها وإنما يأسر كذلك رغباتنا ذاتها.

ديمقراطية القنابل والصواريخ ..

وحين كتب قراءته عن الحرب الأميركية على العراق كان يحذر مما هو قادم وما تفعله واشنطن خدمة للكيان الصهيوني.. وكما قدّم الفضاء العربي لهذه الحرب فسوف يقدّم لتحرك (إسرائيل) في استسلام عربي وقائي شبه كامل وسوف يخطط له من الآن وصاعداً لتدمير أي نواة لمقاومة الهيمنة الإسرائيلية أي تدمير نواة للحرية ...

هكذا يعطى لإسرائيل أن تبدأ بكتابة تاريخ جديد آخر لهذا العالم العربي وتعطى لهذه الولاية التابعة أن تصبح المركز العاصمة، المركز للولايات المتحدة في شكلها الإمبراطوري الجديد ... عاصمتها في الفضاء العربي على الأقل.

صورة العالم غداً..

وحين يقرأ أدونيس من واقع الحال ما ستكون عليه صورة العالم غداً في ظلّ ما يجري يبدو الاستنتاج جرحاً فاغراً لا يمكن أن نوقف نزيفه.

البشر كلهم في جهة والوباء الكوروني في جهة إلا في العالم العربي الإسلامي... شعوبه كلها غرباً شرقاً شمالاً جنوباً مأخوذة بإبادة بعضها بعضاً أفراداً وجماعات وفي مختلف الميادين ..

وفي المشهد المستقبلي كما يضيف .. الليبرالية الجديدة في صورتها الأميركية هي فائدة أوركسترا في جوقات هذه الهيمنة الثقافية تجلياتها جميعاً موضوعة في الكيس الإعلامي الذي تسهر عليه هذه الليبرالية باسم العولمة وهي كما تؤكد التجربة عولمة الابتذال الذي يقوم على تمجيد السوق والكم وعلى تمجيد الآلة.. إنها الوباء الكوني الذي يتقدم في غزوه وزحفه الجديدين .. لكي يحول الإنسان إلى آلة.

زاوية حادة..

استعمار ثقافي ..

د.ح

مع فورة الاستعمار الغربي الذي امتد على قرنين من الزمن وربما أكثر وشمل مساحات واسعة من العالم ..عملت العقول الغربية على نشر فكرة أن الغرب هو المركز وكل ما يأتي منه لا يحتاج إلى نقاش ..

هو مصدر العلوم والآداب والفلسفة ولغاته هي الأنبل والأكمل والأجمل وعلى العالم أن يتعلمها .

وقد نجح التضليل هذا إلى فترة طويلة وسادت التيارات الفكرية الغربية وانتشرت ووجدت صداها حيث زرعت مصطلحاتها ..

اليوم بعد الصحوة العالمية لاسيما الثقافية ..هل مازالت الهيمنة الثقافية الغربية مسيطرة على العالم؟

من المؤكد أنها لم تفقد بريقها كله ولكنها لم تبق كما كانت..الصحوة الثقافية العالمية تمد جذورها نحو التفاعل والتكامل ولكن ثمة من يعرقل ذلك.

مسارات الفكر الغربي تتبدّل

أيمن المراد

لكل ثقافة مسارها، ولا يوجد مسار واحد لجميع الثقافات، فالثقافة تعبير عن مرحلة تاريخية بعينها، وتتشكل في إطار الوعي التاريخي لأمة ومن خلاله، فإذا ما سيطرت ثقافة وشاعت، وتحولت إلى ثقافة مركزية، أصبحت باقي الثقافات في الأطـراف. وأصبـح مسار الثقافة المركزية هو العصر والتـاريـخ، وباقي المسارات يعادل الثقافة العالمية، وغيرها ثقافات محلية.. حدث ذلك في الحضارة المصرية القديمة، وحضارة الشرق القديم، حيث تحولت هذه الحضارات إلى حضارة مركزية، وغيرها من الثقافات إلى ثقافة أطراف.

ما ان انتهت الحرب العالمية الثانية في آب أغسطس ١٩٤٥ ووضعت الحـرب أوزارهـا، وانقسم المتحاربون إلى فريقين، منتصر بقيادة الولايات المتحدة على الجيش الإمبراطوري الياباني بتدمير طوكيو ثم إلقاء القنابل الذرية على هيروشيما ونجازاكي .. قبل ذلك بقليل انهزمت ألمانيا وإيطاليا، سريعاً ما شكل الحلفاء مراكز عسكرية وسياسية لقيادة عمليات ما بعد انتهاء الحرب في الدول المنهزمة.

فتشكلت مراكز قيادة للحلفاء فى كل من النمسا وألمانيا واليابان.. كانت أبـرز ملامح مرحلة ما بعد انتهاء الحرب هو ذلك الدمار الشامل في البنية التحتية، وكذلك الخسائر الفادحة في الأرواح، فتقدر الإحصاءات أن بين ٦٠ و٧٠ مليون شخص لقوا حتفهم أثنـاء الحـرب منهم ما يقرب من ٥٠ مليون مدني والباقي من العسكريين!.

ونتيجة أولى لهذه الحرب كان لا بد من إعادة رسم خريطة سياسية بعبارة أخـرى، فقد كانت النتائج المباشرة لانتهاء الحرب العالمية الثانية هي تشكيل تنظيم دولي جديد يطمح إلى تطبيق قواعد القانون الدولي على كل دول العالم الذي انقسم بدوره إلى كتلتين رئيسيتين، الكتلة الغربية بزعامة الولايات المتحدة، وعبر عنها حلف الناتو العسكري (١٩٤٩ - حتى الآن) والكتلة الشرقية بزعامة الاتحاد السوفييتي والتي بدورها قامت بتشكيل حلف وارسو (١٩٥٥ ـ ١٩٩١) بتفككه.

الأمر الذي نتج عنه تقسيم العالم إلى دول تسعى إلى فرض معادلتها واستثمار نتائج الحـرب، وهـي الـدول المعروفة بالمجتمع الغربي، فالنتيجة المعقولة لهذا النظام الجديد أن يتجه لاقتصاد يواكب عالم ما بعد الحرب، وهنا بدأ الصراع بين الدول محاولة الاستحواذ على كل شيء اقتصادياً وثقافياً وفكرياً(لامتلاكها كبرى الجامعات والمعاهد الفكرية ودور النشر ووسائل النقل الحديثة، ولاحقاً معظم وسائل الإعلام المرئي المقروء والمكتوب والمسموع) واجتماعياً.

لقد لعب حكم القوة دوراً مهماً في تنمية النظم الفكرية الثقافية، فتماشى الاقتصاد إلى جانب السياسة والفكر والتعليم بخطى متوازنة ومتوازية.

ولم يعتمد الغرب فقط على بسط هيمنته ونمط إنتاجه وإملاء شروطه؛ بوصفها حقيقة وحيدة لازدهار الحضارة، مع سياسة النهب الخالص، إنما اعتمد أيضًا على أساليب أخرى في مرحلة ما قبل الاستعمار المباشر، وذلك عن طريق الاتفاقيات التجارية والعسكرية والعلمية مع حكام دول الأطـراف، وتكوين أنصار وزبائـن مفتونين بمبادئه وقيمه ومؤسساته في المجتمعات المحلية، والتسلل إلى الضمائر، وتطويعها وتسخيرها لمصلحته.

ويمكن القول إن صور الغرب في الدول الهزيلة (المقصود بهذا المصطلح الدول التي لم تستطع مواكبة الغرب الاستعماري على سكة نهضته) فبقيت نظرتها لهذا الغرب تـتراوح بين الافتتان والكراهية، وفقاً لطبيعة العلاقة الرسمية مع الدولة القـوية، وتتقلب الصـورة مـن زمـن لآخـر، وفقـاً للتطورات السياسية والثقافية للنخب الحاكمة من الليبرالية والماركسية والإسلامية والعلمانية وغيرها!.

تتجدد السجالات في أوروبا والولايات المتحدة حول سيناريوهات نهاية نفوذ الغرب التي تغذيها منذ سنوات إصدارات ومقالات لمفكرين وخبراء الاستراتيجيات، والتي تحمل عناوين مثل كتاب «موت الغرب» الذي صدر منذ سنوات للأميركي باتريك جيه بوكانان الخبير ومستشار رؤساء أميركيين، في ذروة الجدل حول الهجرة وأزمة النمو الديمغرافي بأوروبا.. وهناك مقالة «وداعًا للغرب» لوزير الخارجية الألماني الأسبق يوشكا فيشر التي قدم من خلالها رؤية متشائمة لمستقبل الغرب إثر صعود الرئيس الأميركي السابق دونالد ترامب سنة ٢٠١٦، وأعقبتها مقولة «الموت السريري لحلف الناتو» التي أطلقها الرئيس الفرنسي إيمانويل ماكرون، هذا سياسياً الأمر الذي ينعكس بشكل تلقائي على غيره من مناحي الحياة.

المتأمل في الأمر يرى أن حالة الضعف والتشرذم التي يعيشها العالم في جزء كبير منها يعود إلى الغزو الثقافي والفكري الغربي الهائل الذي سيطر على العقول.

الغزو الغربي أخطر ما نواجه في حياتنا، لما يقوم به من تقويض يتعلق بأعماقنا عقائديًا وفكريًا وحضاريًا، وليس أمام الدول الأقل حظًا إلا المواجهة، وقبول التحدي، وإثبات الذات، وإلا فلن تقوم لنا حياة، ولن نكون جديرين بها.

الغزو الفكري هو السلاح الذي لا يخيب في إذابة الشعوب وانسلاخها عن عقائدها وحضارتها لتصبح تابعًا للغير، يؤمر فيطيع، لذلك حرصت الدول الغربية على تحسين صورتها بصناعة نخب مرتبطة بها، وقد أدت هذه النخب الدور الموكل إليها بحرفية.

لقد قام هذا الغزو بدوره المؤثر في تضليل المجتمعات الإنسانية وخداعها، والتمويه عليها، وقلب الحقائق وتشويهها، وذلك عن طريق تصنيع الكلمة، وزخرفة القول، والدخول إلى المخاطب من نقطة الضعف لإغرائه، والإيقاع به، إلا أن بعض التيارات الفكرية المنتشرة ترى أن الغرب ليس كله شراً، وعلى الآخرين الاستفادة من تجاربه التي قادته إلى التقدم، والاستفادة ما أمكن مما حققه من إنجازات، وترشيدها وفقًا للقيم والأسس التي تقوم عليها المجتمعات، وهذه الرؤية مماثلة لما قام به الغرب نفسه عندما كان يعاني التخلف في عصور ازدهار الحضارات الشرقية.

وقد ظهر تيار حرص على إظهار الافتتان بالغرب والدعوة إلى السير في ركابه! ويرى أنصار هذا التيار أن أخطاء الغرب هي أخطاء أهل الحضارة المتفوقة، وهي أخطاء أقل بكثير من حسناته لذلك يدعون إلى الاقتداء بالغرب لأنه سبيل النجاة لأي دولة نامية تريد أن تتقدم!.

وهذا التيار يتصدر المشهد اليوم، وخاصة مع القفزة النوعية والهائلة للإعلام ووسائل الاتصال التي تقدم بأغلب الأحيان صورة مثالية للحياة الغربية، فهل نجحوا في ذلك؟.

المتابع المتأثر بصورة الأحداث التي تمر أمامه عبر وسائل الإعلام المختلفة(ذلك الإعلام سيف بحدين) تحولت مع الكثير من صور الانتهاكات(سجن أبو غريب، أفغانستان وغيرها الكثير) إلى كراهية غير مسبوقة للحضارة الغربية، وأصبح قطاع لا بأس به من الرأي العام الشعبي مجمعًا على موقف معاد للحضارة الغربية، الأمر الذي انعكس سلبًا على الصورة النمطية المتشكلة في ذهن شعوب العالم، ومع تواتر الأحداث تراجعت المكانة الثقافية والفكرية والأخلاقية، وبدأت تظهر تيارات فكرية وخاصة في آسيا لخلق تيار فكري يوازي التيار الفكري الغربي الهدف منه خلق قاعدة شعبية تؤمن بوجود نمط آخر يستطيع السير بركبه، والابتعاد ما أمكن عن الثقافة الغربية وفكرها الشاذ والمتطرف في كثير من الأحيان.

فهل انحسر الدور والسيطرة الفكرية والثقافية للغرب، يمكن إلى حد ما، ولكن الطريق مازال طويلاً ويحتاج إلى المزيد من المقاومة للوصول إلى معادلة شبه متوازنة بين المتجاورين على هذا الكوكب!.

صدام الحضارات بداية الأفول الغربي

علي حبيب

كانت المركزية الغربية ومازالت تشغل بال المثقفين والمفكرين العالميين، ولم يكن أحد يجرؤ على القول إنها ستؤول إلى الإخفاق، لكن صاحب كتاب صدام الحضارات قد بشر بذلك بطريقة غير مباشرة، حول ذلك يرى الناقد صلاح عبد العاطي في الحوار المتمدن.

اجتهد هنتنجتون لصياغة رؤية تفسيرية، بالاستناد إلى مجريات الواقع الحضاري الذي يعيشه العالم، وبما أن كل رؤية تفسيرية تنطلق من ثابت منطقي ووجدي أحياناً، فإن هنتنجتون يعتمد مقولة الصدام، كتعبير عن لحظة الصراع الذي يجري وسيستمر في أرض الواقع، لكي تكون هذه المقولة ذات دلالات عامة وشمولية فإنه يحقنها بقوة دلالية مضافة لتصبح أكثر تعبيراً عن جوهرية هذا الصدام، واتساع شموليته، فمن الصدام الحضاري إلى الصدام الكوني، ومن الصدام الجزئي، بين طرفين أو ثلاثة إلى صدام كلي تشترك فيه مجمل القوى البشرية بمختلف تشكيلاتها.

وكما هو معتاد، فإن أي مفهوم إجرائي لابد أن يشتغل في مجال ما وإلا ظل سابحاً في فضاء معطل، فالتعبير يجري ضمن مجال، فأما أن يصل إلى التطابق بين إرادة التغيير، أو يصل إلى حالة الصدام والتنافر بين الإرادات المضادة، والمجال الذي يفترض فيه هنتنجتون (التغيير والصدام) هو مجال (الحضارات) فالتغيير يجري في وضعية الحضارات، والصدام سيكون فيما بينها، وهنا إقصاء لرؤية الانسجام والتوائم الحضاري، وإنزال التصادم والتنافر إلى حيزات الواقع الفعلي.

فالمفاهيم الواردة في الكتاب تتمفصل في خمسة محاور أساسية: مفهوم الحضارات، مسألة الحضارة الكونية، العلاقة بين القوة والثقافة، ميزان القوى المتغير بين الحضارات، التأصيل في المجتمعات غير الغربية، البنية السياسية للحضارات، الصراعات التي تولدها عالمية الغرب، العسكرية الإسلامية، التوازن والاستجابات المنحازة للقوة الصينية، أسباب حروب خطوط التقسيم الحضاري والعوامل المحركة لها ومستقبل الغرب وحضارات العالم فهي:

١ . لأول مرة في التاريخ نجد (الثقافة الكونية) متعددة الأقطاب ومتعددة الحضارات، التحديث مختلف بدرجة بينة عن التغريب، ولا يُنتج حضارة كونية بأي معنى، ولا يؤدي إلى تغريب المجتمعات غير الغربية.

٢ . ميزان القوى بين الحضارات يتغير، الغرب يتدهور في تأثيره النسبي، الحضارات الآسيوية تبسط قوتها الاقتصادية والعسكرية والسياسية، الإسلام ينفجر سكانياً مع ما ينتج عن ذلك من عدم استقرار بالنسبة للدول الإسلامية وجيرانها، والحضارات غير الغربية عموماً تُعيد تأكيد ثقافتها الخاصة.

٣ . نظام عالمي قائم على الحضارة يخرج إلى حيز الوجود، المجتمعات التي تشترك في علاقات قربى ثقافية تتعاون معاً، الجهود المبذولة لتحويل المجتمعات من حضارة إلى أخرى فاشلة، الدول تتجمع حول دولة المركز أو دولة القيادة في حضارتها.

٤ . مزاعم الغرب في العالمية تضعه بشكل متزايد في (صراع مع الحضارات الأخرى) وأخطرها مع (الإسلام والصين)، وعلى المستوى المحلي، فإن حروب خطوط التقسيم الحضاري، وبخاصة بين المسلمين وغير المسلمين، ينتج عنها (تجمع الدول المتقاربة)، وخطر التصعيد على نطاق واسع، وبالتالي جهود من دول المركز لإيقاف تلك الحروب.

٥. إن بقاء الغرب يتوقف على الأميركيين بتأكيدهم على (الهوية الغربية)، وعلى الغربيين عندما يقبلون حضارتهم كحضارة (فريدة)، وليست عامة، ويتحدون من أجل تجديدها، والحفاظ عليها ضد التحديات القادمة من المجتمعات غير الغربية، إن تجنب حرب حضارات كونية يتوقف على قبول قادة العالم بالشخصية متعددة الحضارات للسياسة الدولية وتعاونهم للحفاظ عليها.

تُشير هذه المحاور إلى أن عالم ما بعد الحرب الباردة متعدد الأقطاب، يفتقر إلى تقسيم واحد ومحدد، كالذي كان أثناء الحرب الباردة، هذه الأقطاب هي (الحضارات) التي يتكون منها العالم، وهي: الصينية، اليابانية، الهندية، الإسلامية، الغربية، الإفريقية وأميركا اللاتينية، وما يحكم العلاقات بين هذه الحضارات هو (الصدام)، هذا الصدام ينطلق ويعود بالاستناد إلى (الثقافة) أو إلى (الهوية)، ذلك (إن الثقافة أو الهويات الثقافية، والتي هي على المستوى العام، هويات حضارية، هي التي تشكل أنماط التماسك والتفسخ والصراع في عالم ما بعد الحرب الباردة ..) على أن العوامل الثقافية المشتركة والاختلافات هي التي تشكل المصالح والخصومات وتقاربات الدول، ونلاحظ أن أهم دول العالم جاءت من حضارات مختلفة، والصراعات الأكثر ترجيحاً أن تمتد إلى حروب أوسع، هي الصراعات القائمة بين جماعات ودول من حضارات مختلفة، وأشكال التطور السياسي والاقتصادي السائدة تختلف من حضارة إلى أخرى، والقضايا السياسية على أجندة العالم تتضمن (الاختلافات بين الحضارات)، والقوة تنتقل من الغرب الذي كانت له السيطرة طويلاً إلى الحضارات غير العربية، والسياسة الكونية أصبحت متعددة الأقطاب ومتعددة الحضارات.

إن رؤية هنتنجتون تتقاطع هنا كلياً مع رؤية (فرانسيس فوكوياما)، الباحث الأميركي الجنسية الياباني الأصل، والذي قال: إن انهيار القطبية الثنائية بانهيار الاتحاد السوفيتي، كإطار للشيوعية، أدى إلى انفراد الرأسمالية والليبرالية الغربية بالعالم وهو ما يمثل نهاية التاريخ، أو بتعبيره حالياً نشهد نهاية التاريخ بما هو نقطة النهاية للتطور الأيديولوجي للبشرية وتعميم الليبرالية الديمقراطية الغربية على مستوى العالم كشكل نهائي للحكومة الإنسانية.

فالتغير في مسار التاريخ والتغيرات المتلاحقة خلال ربع قرن لم تؤد إلى حالة من الانسجام أو التوافق الواحدي الاتجاه، بل على العكس من ذلك، أخذت تُشطي هذه القطبية المنفردة إلى أقطاب أخرى، فالصراع خرج من مجال ضيق بين نظامين هيمنا على البشرية خلال خمسة وسبعين عاماً إلى مجال أنظمة متعددة ومختلفة، ومن دائرة عقائدية ممنطقة ومُعقلنة إلى مجال أنظمة وجودية فكرية ترتبط بمفاهيم مؤصلة في الذات البشرية، ذات ارتباط معيوش لا يكاد ينفصل انفصالاً كلياً عن الوجود البشري في ظهوره الشخصي مثل: العرق، الدم، الطائفة، الدين، العقيدة، التقاليد، وهي مفاهيم تُمثل: قوى للصدام، أو هويات ثقافية أو حضارية، مؤهلة للتنازع والصدام والتصارع بها بين التعدديات الحضارية، أو القُطبيات المختلفة.

الصراع الجديد إذن صراع هويات ثقافية أو حضارية وهو الذي سيحكم العلاقات بين البشر، ويُوصف بأنه مائع ترى الناس (يبحثون عن الهوية والأمان، وعن جذور وصلات لحماية أنفسهم من المجهول)، ومع نهاية الحرب الباردة بدأت الدول في أنحاء العالم تتلمس الطريق نحو التجمع، وتجد هذه التجمعات مع دول لها نفس الثقافة ونفس الحضارة، بمعنى أن السياسة الكونية يعاد تشكيلها الآن على امتداد الخطوط الثقافية، الشعوب ذات الثقافات المتشابهة تتقارب والشعوب والدول ذات الثقافات المختلفة تتباعد، الانحيازات التي تعتمد على الأيديولوجية والعلاقات مع القوى الكبرى تفسح الطريق لتلك التي تعتمد على الثقافة والحضارة، والحدود السياسية يُعاد رسمها لكي تتوافق مع الحدود الثقافية والعرقية والدينية والحضارية، المجتمعات الثقافية تحل محل تكتلات الحرب الباردة، وخطوط التقسيم بين الحضارات تصبح هي خطوط الصراع الرئيسية في السياسة العالمية.

بوشكين قيثارة الشعر الروسي

مها محفوض محمد

تمر هذه الأيام ذكرى رحيل قيثارة الشعر الروسي بوشكين فهو شاعر وكاتب مسرحي، وروائي في الحقبة الرومانسية، يُعتبر من قبل الكثير الشاعر الروسي الأعظم ومؤسس الأدب الروسي الحديث.

وُلد بوشكين لعائلةٍ روسية نبيلة في موسكو. ينتمي والده سيرغي لفوفيتش بوشكين إلى عائلات بوشكين النبيلة. كان مسقط رأس جده الأكبر من نسب والدته الفريق الأول (الجنرال) أبرام بيتروفيتش جانيبال في أفريقيا. نشر أول قصيدة له في سن الخامسة عشرة، وعُرف بشكل واسع من قبل المؤسسات الأدبية في وقت تخرجه من فناء تسارسكوي سيلو (قاعة ألكسندرالإمبراطورية). ألقى بوشكين خلال تخرجه من المدرسة الثانوية قصيدته المثيرة للجدل «أغنية الحرية»، التي تُعد واحدة من عدة قصائد أدت لنفيه من قبل الإمبراطور ألكسندر الأول. كتب بوشكين مسرحيته الدرامية الأكثر شهرةً «بوريس غودونوف» في ظل المراقبة المشددة من قبل شرطة الإمبراطور السياسية وعدم القدرة على النشر. كانت روايته الشعرية «يفغني أونيغين» تُنشر بشكل متسلسل خلال عام ١٨٢٥ حتى عام ١٨٣٢.

جُرح بوشكين بشكل مميت في مبارزة مع نسيبه «جورج تشارلز دي هيكران دانثيس» الذي يُعرف أيضًا باسم دانتي جيكيرن، وهو ضابط فرنسي يخدم في فوج الحرس الخيالة، الحياة الباكرة

وحسب الدراسات النقدية

يصنف النقاد أعماله على أنها أعمال فنية مميزة، مثل قصيدة «الفارس البرونزي» والمسرحية الدرامية «الضيف الحجري»، قصة سقوط دون خوان. كانت مسرحيته الشعرية القصيرة «موزارت وساليري» (مثل «الضيف الحجري»، إحدى المجموعات الأربع «التراجيديات الصغيرة» التي جُسدت من قبل بوشكين نفسه في رسالة إلى بيوتر بلتينوف في عام ١٨٣٠) بمنزلة إلهام لمسرحية بيتر شافير «أماديوس» وأوبرا ريمسكي كورساكوف «موزارت وساليري». عُرف بوشكين أيضًا بقصصه القصيرة. وبشكل خاص مجموعة «حكايات الراحل إيفان بتروفش بيلكين»، بما فيها «الطلقة» التي لاقت رواجًا جيدًا. فضل بوشيكن بنفسه روايته الشعرية «يفغني أونيغين»، التي كتبها خلال مسيرة حياته والتي أصبحت تقليدًا خاصًا بالروايات الروسية العظيمة، إذ تتبع بضع شخصيات محورية لكنها تختلف بشكل واسع في النبرة والتركيز.كانت رواية أونيغين معقدة لدرجة جعلت المترجم فلاديمير نابوكوف يحتاج لمجلدين كاملين من المحتوى من أجل تقديم معناها بشكل كامل باللغة الإنجليزية، على الرغم من أنها كانت عبارة عن مئة صفحة تقريبًا فقط. وبسبب تلك الصعوبة في الترجمة بقي شعر بوشيكن غير معروف بشكل كبير بالنسبة لقراء اللغة الإنجليزية. وعلى الرغم من ذلك، ألهم بوشكين عددًا كبيراً من الكتاب الغربيين مثل هنري جيمس. كتب بوشكين «ملكة البستوني» التي أدرجت في «بلاك ووتر»، وهي مجموعة من القصص القصيرة حول طبيعة أغلبية الكتّاب الرائعة، والتي جمعها ألبرتو مانغيل.

كانت أعمال بوشكين بمنزلة الأرض الخصبة بالنسبة للملحنين الروسيين. إذ كانت أوبرا غلينكا «رسلان ولودميلا» أولى أعمال الأوبرا المهمة التي استُلهمت من أعمال بوشكين، وتركت أثرًا في التقاليد الموسيقية الروسية. أصبحت أعمال تشايكوفسكي الأوبرالية «يفغني أونيغن» و«ملكة البستوني» لربما أكثر شهرةً خارج روسيا من أعمال بوشكين التي حملت الاسم ذاته.

تصنف أوبرا موسورسكي التذكارية «بوريس غودونوف» كأحد أروع أعمال الأوبرا الروسية وأكثرها أصالة. ومن الأعمال الأوبرالية التي اعتمدت على أعمال بوشكين أوبرا دارغوميسكي «رسالكا» وأوبرا «الضيف الحجري»؛ وأوبرا ريمسكي كورساكوف «موزارت وساليري»، وأوبرا «قصة القيصر سلطان»، وأوبرا «الديك الصغير الذهبي»؛ وأوبرا كوي «سجين القوقاز» وأوبرا «وليمة في زمن الطاعون» وأوبرا «ابنة القبطان»؛ وأوبر تشايكوفسكي «مازيبا»؛ وأوبرا رخمانينوف ذات العرض الواحد «أليكو» (اعتمادًا على «الغجريات») وأوبرا «الفارس البخيل»؛ وأوبرا سترافينسكي «مارفا»، وأوبرا نابرافنيك «دبروفسكي».

إضافة لاعتماد رقصات الباليه والكنتاتا، والأغاني التي لا تحصى، على قصائد بوشكين الشعرية (بما فيها قصائده باللغة الفرنسية، في سلسلة أغاني إيزابيل أبولكير «ترويكا»). وأيضًا اعتمدت أوبرا كل من سوبّ، وليونكافالو، ومالبييرو على أعماله.

بوشكين الذي تناول الأنواع الأدبية كافة من الرواية والشعر الغنائي الملحمي كان مؤرخاً وناقداً أيضاً، لم يكن فقط أكبر أدباء روسيا إنما كان أيضاً رمز العبقرية الوطنية الروسية.

ينتمي بوشكين المولود في موسكو عام ١٧٩٩ إلى أسرة عريقة من النبلاء الروس، أتقن اللغة الفرنسية في طفولته قبل أن يبلغ سن العاشرة، وكان يلقي الشعر والأناشيد الوطنية ذات الإيقاع الموسيقي ويتناول القصص الروائية الشعبية وما إن بلغ الثمانية عشرة حتى أصبح أحد أقطاب الحياة الفنية في العاصمة موسكو ومجتمع المثقفين، حيث كتب عن تلك الشرائح في «المصباح الأخضر» وفي روايته الشهيرة «يفغيني أونيغين».

كان شديد الذكاء يتمتع بالدعابة والنقد اللاذع، ففي سن العشرين ذاع صيته في أنحاء البلاد حين كتب قصيدته الوطنية «روسلان وليودميلا» ذات الطابع الغنائي والمضمون السياسي التي هاجم فيها الإقطاع عام ١٨٢٠ ونفي بعدها إلى القوقاز غير أن المنفى فتح أمامه آفاقاً جديدة، ففي القوقاز وجد مصدر إلهام له، حيث اكتشف الطبيعة الوحشية والقمم الثلجية وشواطئ القرم وخلال تلك الفترة تعمق في قراءة «بايرون» وتأثر به كثيراً فصدر له يومئذ مجموعات من القصائد مثل: «سجين القوقاز» و«بحيرة باختشي ساراي» و«الاخوة اللصوص» وهي أعمال شعرية غنائية.

في عام ١٨٢٠ كتب قصيدته الهجائية «غابريلياد» التي يشبه فيها أسلوب فولتير حيث تحمس يومئذ للسياسة وتبنى قضية استقلال اليونان.

في صيف ١٨٢٣ ذهب إلى أوديسا حيث المجتمع أكثر ثقافة وهناك درس غوتيه وشكسبير وكتب «الغجر» وفي تلك المرحلة عشق زوجة تاجر كبير من أوديسا تدعى ايميلي ثم الكونتيسة فورونتسوفا التي حاول زوجها التخلص منه بنفي الشاعر الغاوي إلى مقاطعة باسكوف.

كانت قراءاته خلال تلك المرحلة ومراسلاته مصدر وحي لشعره كما طلب من أحد أصدقائه أن يرسل له كتباً من بطرسبرغ وفي تلك الفترة صادق كاهن القرية الذي دفعه لزيارة الأديرة وبدأ يختلط بالشعب بلباس الفلاحين ويصغي لهم.

أول أعماله الدرامية له كان «بوريس غودونوف» وفيه يبدو تأثره بشكسبير، وبعد محاولته الهرب بعد خمس سنوات من المنفى عاد الى موسكو واستقبله الإمبراطور ليقيم بوشكين صداقة متبادلة مع الحاكم الجديد وهذا ما دفعه إلى القول قبل موته بأيام: إنه مرتبط قلباً وقالباً بالامبراطور الذي قدم له المساعدات وخلصه من مشكلات كثيرة خاصة الرقابة.

استقبل المجتمع الموسكوفي بوشكين بحرارة وكان ظهوره في المسرح لافتاً، بعدها عاد مجدداً إلى الجنوب ليكتب روايته التاريخية «بطرس الأكبر» وليقيم في الأرياف بعض الوقت ثم ذهب إلى بطرسبورغ وكتب خلال أيام قصيدته الشهيرة «بولتافا «وهي تمجيد للقيصر (بطرس الأكبر) وخلال ذلك سعى للزواج وانخرط في الجيش في القوقاز لمحاربة الأتراك العثمانيين وكتب أشعاراً جميلة على غرار «رحلة إلى أرزيروم» وخلال ذلك كان يحظى برعاية الإمبراطور الذي قدم المساعدة المادية للشاعر الوطني فكتب بوشكين قصيدة ملحمية تقارب ٤٠٠ بيت من الشعر وأربع مسرحيات تراجيدية وقصص «بلكين».

تزوج عام ١٨٣١ من ابنة صديقه غونت شاروف بمباركة الإمبراطور وأقام في بطرسبرغ وحصل على موافقة لكتابة تاريخ بطرس الأكبر حيث سمح له بالاطلاع على أرشيف الإمبراطور وتناول لأول مرة القصة الشعبية: «قصة القيصر سالتان» وهي من أبرز روائعه، كتب أيضاً قصة «الصياد والسمكة الصغيرة»، «الأميرة والأقزام السبعة»، «ابنة الكابتن»، «الفارس البرونزي».

ترك بوشكين أثراً كبيراً على معاصريه وخاصة الشعراء حيث ارتبط عصره باسمه وكان مدرسة سار على خطاها الكتاب الروس.

كان إسباني الهوى في «ضيف من حجر» وإنكليزياً في «مأدبة في زمن الطاعون» وأوروبياً في باقي أعماله وفرنسياً على غرار ميريميه، ففي «ضيف من حجر» مزيج من فاوست ودونجوان، ولأن شعره بقي غير معروف خارج روسيا فلم يقدر أعماله إلا الأدباء الذين ترجموا أعماله الى اللغات الأوروبية ويبقى بوشكين رغم قصر عمره الأدبي (توفي عام ١٨٣٧) كما قال: سيظل قومي يذكرونني لأني هززت بقيثارة المشاعر الخيرة، وناديت بالرحمة على المقهورين.

رواية (الطوطم الذئب) بقراءات متعددة

دلال إبراهيم

لم يتفاجأ جيانغ رونغ الكاتب الصيني (واسمه الحقيقي لو جيامين)بالنجاح الباهر الذي حققته روايته (الطوطم الذئب) بخلفيتها الأسطورية، وبنيتها السردية الموغلة في القدم والأصالة الصينية بتعدديتها. فقد كان مقتنعاً أنه سيكون لها امتدادها العالمي. ولا زالت روايته الفائزة بجائزة مان الأدبية الآسيوية - البوكر الآسيوي - تحطم الأرقام القياسية في المبيعات. وتحتل أفضل الروايات مبيعاً في بلده الأصلي الصين، حيث فاق عدد النسخ المباع منها ٥٠ مليون نسخة وتم ترجمتها إلى أكثر من ٣٠ لغة. وتصبح على هذا النحو في المرتبة الثانية في الصين بعد كتاب ماو الأحمر. ويعترف الكاتب في إحدى مقابلاته النادرة بأنه كرس أكثر من ٣٠ عاماً لأبحاثه، واستغرق في كتابة الرواية وهي الأولى في إصداراته ٦ سنوات.

من هو الذئب الطوطم أو كما تم ترجمته إلى العربية (رمز الذئب)؟ إنها ملحمة أو أشبه بسيرة ذاتية «للشاب شين زهين الذي غادر طواعية بلدته بايجنغ في الصين متوجهاً إلى منغوليا، في بداية الثورة الثقافية في الصين، ليتعلم هناك وعدد من الطلبة أمثاله، كيف بنى شعباً بسيطاً- المغول- امبراطورية عظيمة في التاريخ. وعلى أثر مرافقته لقبيلة مغولية بدوية لمدة عامين، يكتشف هذا الصيني المنتمي إلى طبقة المثقفين في البراري الشاسعة، طريقة جديدة للحياة، حياة البداوة، ويلتقي بالذئاب التي لها قدسيتها لدى شعب المغول. بحيث ورغم حبهم للذئب فإنهم في صراع دائم معه، المعركة ذات طبيعة روحية بين الناس الرحل والذئب الضاري الذي يحكم السهوب، وهم في انسجامهم القاسي والصعب معه منذ آلاف السنين، يقدسونه ويتعلمون منه. ينصبون الفخاخ له ويقتلونه ثم يتركونه في مكانه للطبيعة، لـ (تنجر) وهو اسم الأرض عندهم، الأرض التي تحكم البشر والذئاب معا وتثيبهم. بالمقابل عندما يموت المرء تترك جثته في العراء لتأكلها الذئاب فتكتمل الدورة. فالذئب الطوطم هو معلم وخصم. يُصطاد ويفترس. انبنت الرواية على ركيزتين أساسيتين: أولا المغامرة التي تنشأ فيها كل التصادمات الطبيعية بين البشر فيما بينهم، وبين المحيط القاسي الذي يحتضنهم. ثانيًا السيرة الذاتية للكاتب، لأن جيانغ رانغ استعاد في هذه الرواية جزءًا من تاريخه الشخصي. فهو يقوم بتوصيف مسار الطالب شين زهين الذي نفي في فترة الثورة الثقافية ١٩٦٧، إلى منغوليا الداخلية. في البداية يخيل الى القارئ أن زهين وزملاءه الطلبة في تعارض مع بيلجي- معلمهم الروحي - والذئاب، والأرض. غير أننا نكتشف بأن هؤلاء الشباب معنيون كثيراً بأسلوب حياة المغول. وإذا ما كانوا أحياناً يخرقون العادات رغبة في التعلم فإنا نراهم أخيراً يجتمعون مع مضيفيهم في الركن الذي يتيح الموازنة بين البشر والذئب والأرض.هذا الكتاب ذو الحجم الكبير مملوء بأفكار زهين عن التاريخ الصيني والثقافة الصينية، وخصوصاً، أفكاره عن كيفية غزو الجماعات المختلفة بعضها بعضاً بطرق مختلفة وأزمنة مختلفة. عمل هو والطلبة الآخرين كرعاة غنم وسائسي خيول، مشاركين في صراعات حياة الترحال من أجل البقاء باستنساخ سلوك الذئاب. إن لقاءات زهين مع الذئاب توقظ فيه الغريزة البدائية. وقد اعتمد الكاتب على اللحظات الأكثر حساسية في مسار حياته، إذ استعاد مصائر الكثير من الطلبة المثقفين الذين اقتنعوا بضرورة عيش حياة شعبية وطبيعية تمنعهم من الابتذال والسقوط في شرك الحياة البورجوازية السهلة. بطل الرواية عاش إحدى عشرة سنة بوصفه من الحرس الأحمر. شديد الاقتناع بأن الثورة كانت في خطر. لهذا ظل رهانه الأسمى، أن يكون قريباً من الشعب. هناك اكتشف أن علاقة الشعب المنغولي بالذئب ممزوجة بقسوة الحياة والاحترام، ليست اعتباطية ولكنها جزء من النظام العام الذي يحدد لمنغوليا الواسعة مفهومها للحرية والانطلاق. عالم غني، تخترقه الأساطير التي يتماهى فيها الواقعي بالتخييلي.

من خلال الدفاع عن رمزية الذئب الوجودية، تحولت الرواية إلى وسيلة لمناهضة أعداء الطبيعة. لا عداوة ضد الذئب في هذه الرواية. صحيح أنه حيوان قاس وصعب المراس، لكنه أيضاً مشبع بالحرية وقادر على الموت من أجلها. في الظروف الصعبة، يتأقلم بين العيش فرديًا، والعيش في الجماعة التي يمكنه الدفاع عنها أيضًا حتى الموت. بحيث يزهر الانبهار بها في قلب البطل إلى درجة يصبح مهووساً باكتناز أكبر قدر من المعلومات عن الذئاب.

رواية (الطوطم الذئب) تذكرنا بالحوت الأبيض في تحفة موبي ديك التي رسمها هيرمان ملفيل. أو رواية الشيخ والبحر لهمنغواي. رواية تجسد ذاكرة الشعب المنغولي القادم من سلالة ذئبية أكبر، كما تقول الأساطير: جنكيز خان، والمعروف بمقاومته لصعوبات الطبيعة والمدافع باستماتة عن حيزه الحيوي. ونجزم من خلال قراءتها أن لا أمة منغولية ستكون قامت دون فلسفة الذئب.

وفي النهاية وبحكم زحف المدنية تتحول السهوبَ المعشوشبةَ إلى صحارى. وحينما يعود زهين إلى منغوليا وهو في منتصف العمر يكتشف أن أسلوب الحياة الذي بجله ومجده يوماً قد انتهى تقريباً، وأن الشعب الذي أرعب العالم في زمن من الأزمان وبغياب الذئاب كثرت حيوانات كالفئران لتشكل وباء، والغنم البري التهم العشب حتى تحولت المروج إلى صحارى تبعث بعواصف غبار كثيف يغطي مدينة بايجنغ ويحجب القمر أحياناً. ولنكتشف في آخر الصفحات أننا قرأنا رواية عن الطبيعة، تطرح قضية فلسفية تدور حول منطقين، طالما كانا موضع جدل عبر العصور لدى كافة الأمم، وهي (قضية الذئب والغنم) فمن جهة يمثل الذئب، حيث جعل منه المنغول طوطمهم، الشجاعة والمقاومة والحرية. ومن جهة أخرى يمثل الغنم الخضوع الخوف والضعف. ويمكننا كذلك أن نقسم الرواية منذ المقطع الأول إلى صراع متناقضات... التطور ضد المحافظة، الجديد ضد القديم.

ربما جاء نجاح الرواية على خلفية الجدل الذي أثارته، مع عدم إنكار جمالياتها الأدبية. فقد رأى البعض في الرواية التي رواها جيانغ رونغ مجرد رواية مغامرات، أغوته الملحمة في السهوب المنغولية. أنصار البيئة كتبوا عنها أنها (أعظم رواية بيئية) آخرون قالوا عنها إنها دراسة إثنوغرافية على مجموعة من القساوسة المنغوليين. وحلت الرواية محل كتاب فن الحرب Sun Tzu على الطاولة بجانب أسرة رواد الأعمال الديناميكيين، الذين قرؤوا فيها اعتذارًا عن روح المنافسة. وبالمقابل، وعلى خلفيتها صدرت العديد من الأبحاث التجارية - أطلقوا عليها اسم أطروحة الذئب - تدعو للانطلاق نحو غزو الغرب اقتصاديًا بروح شرسة مثل روح الذئب للفوز بعالم تهيمن عليه روح المنافسة، أو أن تصبح رجلًا عصاميًا.

ثلج حرمون

سعيد عقل

شام يا ذا السيف لم يَغِبِ
يا كلام المجد في الكُتُبِ
قَبْلَكِ التاريخُ في ظُلْمَةٍ
بَعْدَكِ استولى على الشُهُبِ
لي ربيعٌ فيكِ خَبَّأتُهُ
مِلْءَ دنيا قلبيَ التّعِبِ
يومَ عيناها بساطُ السما
والرماحُ السودُ في الهُدُبِ
تَلْتَوي خصراً فأُومي إلى
نغمةِ الناي ألا انْتَحِبِي
أنا في ظِلّكَ يا هُدْبَهَا
أحسبُ الأنْجُمَ في لُعَبِي
طابت الذكرى فَمَنْ راجعٌ
بِي كَمَا العودُ إلى الطَرَبِ
شامُ أهلوكِ إذا هُمْ على
نُوَبٍ قلبي على نُوَبِ
أنا أحبابيَ شِعري لهمْ
مِثْلَمَا سيفي وسيفُ أبي
أنا صوتي منك يا بردى
مثلما نَبْعُكَ من سُحُبي
ثَلْجُ حرمون غَذَانا معاً
شامخاً كالعزِّ في القُبَبِ
وَحَدَ الدنيا غداً جَبَلٌ
لاعِبٌ بالريح والحِقَبِ

عائدٌ أنت يا جولان

إسماعيل مكارم

وأنتَ يا جولانُ
مهما طالتِ الأبعادْ
عائدٌ يوماً مَع هُبوبِ النسيمْ
كلّ زهرةٍ تبتسِمُ لقدوم النهارْ
كلُّ طيرٍ من طيور النَورسِ
يَعْشقُ شطآنَ البحارْ
كلُّ سَمَكةٍ تعودُ لترعى صِغارها
في أعالي نهرها العَنيدْ
كلُّ قطرةٍ غيثٍ تغادرُ البَحْرَ
لتعودَ إليه من جَديدْ
كلُّ جَدولٍ ومهما أعاقته الصّعابُ
سَيَصبّ يوماً في نهرِهِ العظيم
وأنتَ يا جولانُ

مهما طالتِ الأبعادْ
عائدٌ يوماً مَع هُبوبِ النسيمْ
ورفرفت من ذرى الجولان قبّرةٌ
تبكي على حالِها والدّمع ينهمرُ
إني أخاف، هنا الفندالُ والتترُ
شِدّي الحزامَ ليبقى السّيفُ والحَجرُ
أوصيكَ بالحَذر الشديدِ يا بلدي
فبعد كارثة لا ينفعُ الحَذرُ
إني أتوقُ إلى رؤياك يا وطني
كما تتوقُ إلى الحَقيقةِ الفِكرُ
إني أتوهُ بلا حِماكَ مُضطرباً
كما تتوهُ بهذا العالمِ الغجَرُ
أهذه الشام دارُ الخلدِ باقية

أم هذه الشام دَرْبُ الخلدِ يَزدهِرُ؟
دمشقُ جنةُ عدن نحوها نحدو
والشرق شاطئُ دفءٍ نحوَهُ السّفرُ
والعز يَبدأ من دمشق تاريخُه
أرضِ المروءاتِ، حيثُ البَدو والحَضَرُ
هنا الضياءُ...هنا السّناءُ والقمَرُ
هنا الجَمالُ ...هنا الدّلالُ والسّمَرُ
هنا الهلالُ ...هنا الصّليبُ والكتبُ
والحُبّ يلقاكَ والتهليلُ والبَشرُ
يا شامُ، يا زينة الدنيا، أيا بلداً
يحلو لنا مِثلما للعاشِقِ النظرُ
يا شامُ، يا عشقنا وحُلمَ أحلامِنا
أنّى نظرتُ بكِ التاريخُ والعِبَرُ

أنا العروبيّ في العشرينَ أجدادي
ثارَتْ بَنادقهُم للأرضِ تنتصِرُ
لِيسلونَ تنادتْ نخبة النخبِ
لردّ بغي أسودُ الغابِ تنتشِرُ
وفا المُحبّ أيا شآمُ يَسري بنا
لا لومَ إن شاءتِ الأيامُ والقدَرُ!
طلبتُ ودّكِ يا شآمُ مُشتاقاً
أرضُ الجُدودِ لكلّ الناسِ مفتخرُ
فيروزُ والشامُ والحنينُ يَسرقني
نحو الطفولة، حيث الكرمُ يُعتصَرُ
إني أتوقُ إلى رؤياك يا وطني
كما تتوقُ إلى الحقيقةِ الفِكرُ